

بيعة الغدير

ركن المشروع الاسلامي للوجود الانساني

بقلم الباحث

السيد عبد الستار الجابري

المقدمة

من الجوانب المهمة في دراسة حادثة الغدير قراءة تلك الحادثة في ضوء المشروع الالهي في بناء الانسان، ذلك المخلوق الذي شاء الله ان يوجد فيه تجليات الجمال والجلال ليحقق الغاية من الخلق (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون)¹ والتي لا يحققها في الواقع الاجتماعي الانساني الا اذا تحقق مجتمع التقوى على الارض (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم)² ولن يتحقق مجتمع التقوى ذلك الا باتباع الكتاب العزيز (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين)³ ولن تتحقق التقوى الا باتباع الرسول (صلى الله عليه واله) (وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)⁴ ولن يتحقق اتباع الرسول الا باتباع الكتاب العزيز واهل البيت (عليهم السلام) معاً (اني مخلف فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي ابدأ كتاب الله وعترتي اهل بيتي وانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض)⁵ ولن يتحقق اتباعهما الا باتباع نهج امير المؤمنين علي بن ابي طالب (صلوات الله وسلامه عليه) (ياعمار لو سلك الناس وسلك علي واديا فاسلك الوادي الذي سلكه علي بن ابي طالب)⁶، فاذن هناك ترابط وثيق العرى بين كل هذه المفردات لا يمكن التفكيك بينها بل هي وحدة واحدة كحلقات السلسلة الواحدة اذا تم فصل حلقة من حلقاتها لم ينعقد نظم تلك السلسلة.

وهذا البحث قراءة في مفردتين من مفردات بيان المشروع الالهي في اقامة مجتمع التقوى وحكومة العدل الالهي فهو يقع في مبحثين وخاتمة:

الاول: السنة الالهية في المجتمع الانساني

الثاني: المشروع الحضاري الاسلامي

الخاتمة: واقع المشروع الاسلامي بعد 1456 من الانطلاقة

1 الذاريات:56

2 الحجرات:13

3 البقرة:1

4 الحشر:7

5 انظر الاحكام للامام يحيى بن الحسين الزيدي:40/1، شرح الازهار للامام احمد المرتضى الزيدي:17/1، بصائر الدرجات:69 و433، الامامة والتبصرة:44، الكافي:ج1/209، ج3/415، دعائم الاسلام:28، امالي الصدوق:500 و616، الخصال:65، شرح النهج لابن ابي الحديد:133/9، نظم درر السمطين:331، الجامع الصغير للسيوطي:1/402، كنز العمال:1/172

6 الاربعون حديثاً للقمي: 60

المبحث الاول

السنة الالهية في المجتمع الانساني

يمكن تقسيم البحث في السنة الالهية في المجتمع الانساني من الناحية الزمنية الى عدة ادوار:

الدور الاول: في الفترة الممتدة من بداية الخليقة وحتى عهد النبي ابراهيم (عليه السلام)

الدور الثاني: عهد النبي ابراهيم (عليه السلام)

الدور الثالث: اقامة دولة التوحيد على يد انبياء بني اسرائيل

الدور الرابع: الدولة النبوية في جزيرة العرب

الدور الاول

الوجود الانساني على الارض

شاءت الارادة الالهية ان يكون الانسان خليفة الله في الارض فأنبأ الملائكة انه سيجعل في الارض خليفة، وامرهم ان يقفوا له ساجدين اذا نفخ فيه من روحه، واسكنه وزوجه جنة ضمن له فيها رغد العيش ومنعه من ان يتناول من احدى شجارها، فوسوس له الشيطان ان المنع من تناول من تلكم الشجرة، فتناول ادم (عليه السلام) وزوجه من ثمارها فصدر الامر الالهي بنزولهما الى الارض.

كانت مسألة النزول الى الارض مسألة حتمية، لان الله تعالى ابلى الملائكة انه جاعل في الارض خليفة، وكانت طريقة النزول الى الارض متوقعة على ان يتناول ادم (عليه السلام) من ثمار تلك الشجرة المنهي عنها، الله تعالى اخبره بضمان العيش الرغيد في الجنة ونهاه عن الاكل من تلك الشجرة، وطبيعة ادم (عليه السلام) التواقة الى سبر غور الاشياء سهلت على ابليس بث روح الاستكشاف في نفس ادم (عليه السلام)، اذ وسوس لهما ابليس ان الله تعالى لم يمنعهما من تلكم الشجرة الا لان تناول منها سوف يكتب معه لهما الخلود في هذه الجنة، فاقدما على تناول منها وقد نسيا ما اوصاهما الله به من عدم تناول ثمار تلك الشجرة، فاخلا بشرط البقاء في الجنة والعيش الرغيد فيها، فهبطا منها الى الارض حيث النصب والتعب والكد وشق طريق العودة الى جنة الخلد.

وعلى الارض ظهر اول مجتمع بشري كونته عائلة نبوية فالاب ادم والام حواء وهابيل وقابيل ابناهما، فكانت الارض او محل عبادة لادم وبنيه بعد الخروج من الجنة وهي محل عبادتهم حتى يرث الله الارض ومن عليها.

لم تحدثنا النصوص التاريخية عن طبيعة عبادة ادم (عليه السلام) وبنيه سوى انها حدثتنا عن الاخلاص في العبادة وان ابني ادم (عليه السلام) قرب كل منهما لله تعالى قربانا فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الاخر، وتقريب القربان لله تعالى دليل على التشريع العبادي وان تقديم كل منهما قرباناً مستقلاً يعني ان لكل منهما طريقة في تحصيل الممتلكات التي يمتاز بها ملك كل منهما عن ملك الاخر.

كما تشير آيات الذكر الحكيم ان واقع التشريع في الحقبة الزمنية الاولى لوجود الانسان على الارض حكاية عن هابيل حيث قال (انما يتقبل الله من المتقين) وحيث ان معنى التقى واحد في واقعه وهو المتفرع على الايمان واداء التكاليف حيث قال تبارك وتعالى (ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون).

كما ان تهديد قابيل اخيه بالقتل كاشف عن ان معنى الموت وازهاق النفوس كان امرا واضحا بينا بالنسبة لابني ادم (عليه السلام) كما ان رفض هابيل التعدي على اخيه كاشف عن انهما كان يعلمان حرمة القتل بلا مبرر مشروع، وكل هذه المفردات كاشفة عن وجود تشريع واوامر ونواه الهية.

كما يبين القرآن الكريم ان هابيل هو اول مخلوق بشري يفارق الحياة ولم يكن يدرك قابيل ما عليه ان يفعل تجاه جسد اخيه القتيل، فارسل الله غرابين تقاتلا ثم دفن الغراب القاتل الغراب القتيل فادرك قابيل ان عليه دفن اخيه فدفنه.

فمن قصة ادم (عليه السلام) وابنيه نستكشف ان هناك تشريعاً يتعلق بالفرد والمجتمع كان قد نزل مع ادم (عليه السلام) يحدد علاقة العبد بربه وعلاقاته بالآخرين وحيث ان الوجود الارضي لم يكن في سعته الوجودية ابعد من عائلة واحدة في الارض الواسعة مع كثرة الموارد الطبيعية فلم يحتج المجتمع الانساني في ذلك الوقت الى تشريعات ابعد من القوانين المنظمة لحياة ذلك المجتمع المحدود، وهي تتعلق بالعلاقة بالله تعالى والاحكام الفردية والاسرية.

ومما لا شك فيه ان المجتمع قد اتسع بعد عهد ادم (عليه السلام) وازداد عدد الناس وبحسب جملة من الروايات ان المجتمع البشري تحول من مجتمع العائلة الواحدة الى مجتمع القرية الواحدة، ثم الى مجتمع القرى المتعددة التي كانت تدار ضمن الاحكام الالهية التي تصلهم من خلال الانبياء (عليه السلام) ولعل ابرزها ما كان في عصر ادريس (عليه السلام) كما تشير الى ذلك جملة من الروايات التي دلت على تحقق سلطة لادريس (عليه السلام) في التصرف بالشؤون الكونية لتنظيم ادارة القرى، حيث كان لادريس القدرة على منع قطر السماء من ان يهطل في مناطق معينة عقاباً للقرى التي تخرج عن طاعة الله، فيما كان يسمح للغيث ان يهطل بغزارة في القرى المطيعة لله تعالى، وكان بذلك يهذب سلوك بني الانسان.

وعلى هذا فان المجتمع البشري تطور في جوانبه الادارية من مجتمع العائلة الى مجتمع القرية ثم الى مجتمع القرى المتعددة، هذا على الصعيد الاداري، اما على الصعيد الاقتصادي فمما لا شك فيه ان مجتمع القرية او القرى المتعددة كان يمارس النشاط الزراعي والتقاط الثمار والصيد وتربية المواشي والاستفادة من البانها وجلودها واصوافها وربما كان يمارس النشاط التجاري في مدى ضيق جداً، وان الحاجة الطبيعية تقتضي وجود صناعات كادوات الطبخ وجز الصوف وخياطة الثياب وصناعة الانسجة فضلاً عن البحث عن مصادر الثروة من الذهب والفضة والاحجار الكريمة، كما ان وجود تلك القرى المتعددة يقتضي وجود علاقات تنظم حياة الناس وتحدد تكاليفهم تجاه بعضهم وهذا الجانب التشريعي كان يجري على يد الانبياء (عليه السلام) وهم يبلغونه للناس، وحسب المصادر الروائية فإن التوحيد هو الدين الوحيد للمجتمع الانساني في الفترة الممتدة من نزول ادم (عليه السلام) والى زمان ادريس (عليه السلام)، واما الشرك فكان اول ظهور له ما بعد ادريس (عليه السلام) حيث ابتدأ الشرك بصنع تماثيل لبعض الصالحين لتذكر سيرتهم ثم تحول الامر مع الزمن وتعاقب الاجيال الى تقديس تلك التماثيل والتبرك بها وفي الاجيال اللاحقة اصبحت تلك التماثيل في ذهنية المجتمع وسائل لنزول البركات وانحصر طريق نزول المطر وتحقق الخصب ودفع العدوان بها، ثم تحولت الى ارباب تعبد من دون الله يقدم لها القرابين والهدايا وتناسى المجتمع البشري عبادة الله وتوحيده.

فبعث الله تعالى نوح (عليه السلام) لاعادة المجتمع البشري الى عبادة الله الواحد الاحد ولكن جهوده الكبيرة لم تثمر نتائج بمستوى جهده (عليه السلام) اذ كان المجتمع البشري مصراً على اعتناق الشرك ورفض التوحيد ولعل ذلك يرتبط ارتباطاً كبيراً بأمرين مهمين الاول تجذر عقيدة الشرك في المجتمع والثاني سيطرة كهنة المعابد على افكار الناس وتوجهاتهم، ومن الطبيعي ان كهنة المعابد لن يسمحوا بخسارة المكاسب الكبيرة التي تحققها لهم عبادة المجتمع للاصنام والقرابين التي تقرب لهم، فمن الطبيعي ان يحركوا اتباعهم للوقوف في وجه نوح (عليه السلام) ودعوته الى التوحيد واقامة الشرع الالهي، وبعد 950 سنة من الدعوة الى التوحيد صدرت الارادة الالهية باغراق من على الارض من الكافرين وانقاذ نوح ومن معه والكائنات الارضية من الغرق في فلك نوح (عليه السلام).

ان قصة نوح (عليه السلام) تكشف عن تطور في واقع المجتمع البشري من مجتمع القرى الى مجتمع المدينة وسيطرة كهنة المعابد على افكار الناس وظهور دين جديد في قبال دين التوحيد وان دين الشرك كان متجذراً في النفوس نتيجة النشاط التبليغي الكبير لكهنة المعابد ودورهم في اضلال المجتمع البشري عن دائرة التوحيد وقيام كيانات ادارية او سياسية تتبادل المنافع مع المعابد وكهنتها بحيث يدعم كل منهم وجود الاخر ويسيطران معاً على حركة المجتمع البشري وتوجهاته الفكرية، فكانت دعوة نوح (عليه السلام) الغاية منها اقامة المجتمع الصالح والدعوة الى الله الواحد الاحد والعمل في ضوء التشريعات الصادرة منه تبارك وتعالى وعدم الخروج عنها الى تشريعات اخر، الا ان الذي واجهته دعوة نوح (عليه السلام) هي الرفض من تلك المجتمعات الكافرة بربها، وبعد ان بان ان المجتمع البشري غير قابل للعودة الى الله صدر امر الله بابادة ذلك المجتمع المنحرف.

الدور الثاني

عهد النبي ابراهيم (عليه السلام)

انتهى الطوفان ونزل الناجون الى الارض وهم مجتمع خالص الايمان تمثل بنوح واولاده وبعض المؤمنين، وبحسب بعض الروايات فان عدد الناجين لم يتجاوز ثمانين شخصاً، وهؤلاء هم من نشأ منهم الجيل الثاني للمجتمع البشري بعد طوفان نوح (عليه السلام).

ومن الطبيعي ان تكون نشأة اجيال متعددة على التوحيد خاصة وان حادث الطوفان وانتقام الله تعالى من مجتمع الشرك كان ماثلاً امام من عايش تلك الاحداث، وخالدة في اذهان من نقل لهم اباؤهم واجدادهم محريات تلك الفترة، ومع امتداد الزمن وتباعد الايام وازدياد عدد المجتمع البشري وانتشاره في الارض شرع بنو الانسان في العودة الى اتباع الشهوات وترك الطاعات وارتكاب المآثم حتى اخبرنا القرآن عن اهلاك عاد وثمود الذين تحدث القرآن الكريم عن تطور كبير في نظم حياتهم الاجتماعية والادارية، ولكن العقوبات للمجتمعات البشرية كانت هذه المرة في حدود معينة ولم تبلغ مستوى اباداة جميع المجتمع البشري مما يدل على ان هناك تغير في واقع المجتمع البشري، اذ اننا نجد ان اهلاك الله تعالى للامم وابدائها في حال اصرارها على المعصية ومحاربة الرب امام اذا كان المجتمع قابل للاصلاح فلا يبيد الله تعالى تلك المجتمعات بل يترك لهم فرصة العودة اليه ولو بعد حين وهو ما نجده واضحاً في عهد النبي ابراهيم (عليه السلام) وصريح في قوم يونس (عليه السلام).

عند دراسة عهد النبي ابراهيم (عليه السلام) نجد ان المجتمع البشري ما بعد الطوفان قد انتقل انتقالة عظيمة من مجتمع القرى والمدن المبعثرة الى ظهور الدول والكيانات الكبيرة ذات الطابع الاداري المتطور والنظم القانونية كما رافق ذلك تطور عملي وتقني وبناء الوحدات الادارية والجيوش، كما ان ظهر ان للدين دور مهم في حياة تلك المجتمعات ولكنها كانت مجتمعات منحرفة تجاوزت العبادة فيها عبادة الاوثان الى تقديس الاشخاص وعبادتهم الى جانب الاصنام وهذا يكشف عن ان مجتمع السلطة كان يهدف من خلال تبادل المنفعة من كهنة المعابد اضعاف صفة الانتماء الى الالهة كي يشيع في المجتمع عقيدة ان البشر ينقسم الى صنفين صنف ينتمي الى مجتمع الالهة وهو المجتمع الذي له الحق في الادارة والحكم والصنف الاخر هو مجتمع

غير الالهة الذي يمثل الشعب بمختلف طبقاته والذين عليهم اتباع الملوك والحكام والكهنة، فالنقدس الذي منح من قبل المؤسسة الدينية - كهنة المعابد - كان الهدف منه تأمين العائلة المالكة من ثورات الشعوب ونقمتها نتيجة سوء الادارة والاستئثار بالثروة والمكاسب وان يتلقوا ذلك بصبر ونفوس راضية خشية غضب الالهة وطلب رضاها، وقد اسهمت هذه الحالة بتخدير العقول وتجهيل الامة وحولتها من امم حرة الى امم مستعبدة تعتقد بالاساطير وادعاءات كهنة المعابد وتقدم طلباً لرضا الاوثان الهدايا والقربان.

وكان ابرز الدول التي ظهرت في تلك الفترة هي دولة النمرود في بابل وهي عاصمة اعظم امبراطورية في ذلك الزمان، وكان النظام الديني في بابل يتقوم بعبادة الاصنام المتعددة اضافة الى عبادة النمرود، اي ان النمرود في عقيدة البابليين كان ينتمي الى نسل الالهة في كيان مقدس.

بعث الله تعالى النبي ابراهيم (عليه السلام) لدعوة نمرود وقومه الى التوحيد، فانطلق في الدعوة الى الله شارعاً باثارة العقول وتنبيهها من غفلتها، حيث تشير جملة من الروايات الى ان النبي ابراهيم (عليه السلام) نشأ في بيت اكبر صانع للاوثان في البلاط الملكي، وهو عمه آزر، وكان آزر يكلف النبي ابراهيم (عليه السلام) ببيع الاصنام في سوق المدينة فكان النبي ابراهيم (عليه السلام) يضع الحبل في رقبة الصنم وينادي من يشتري ما لا يضر ولا ينفع.

وكانت الغاية من هذه الخطوة كسر التقديس للاصنام في نفوس الناس خاصة وانها تصدر من شخص ينظر اليه الناس انه من بيت يهتم بصنع التماثيل وبيعها، وفي الوقت ذاته لم يكن المجتمع البابلي يتجرأ على التصدي للنبي ابراهيم (عليه السلام) وهو يهين تماثيل الاصنام لموقعية عمه من بلاط النمرود، ومن الطبيعي ان تثير هذه الحركة التي كان يقوم بها (عليه السلام) تساؤلات متعددة في اذهان الناس وهم يرون تمثال الالهة يسحب في السوق مهاناً دون ان يثار ذلك الاله نفسه وينتقم لكرامته، كما ان اهانة تلك التماثيل من قبل النبي ابراهيم (عليه السلام) الذي ينتمي الى طبقة النبلاء يدفع من له حظ من حرية التفكير الى التشكيك في واقعية ذلك الدين الذي نشأوا عليه ومنه يتضح ان طريقة النبي ابراهيم (عليه السلام) في الدعوة الى الله تعالى كانت تبنتي على بناء الانسان واعادته الى فطرته السليمة واستئثار ذهنه وفكره لتحريره من الاوهام والخرافات والاكاذيب وفضح الادعاءات الكاذبة والعقائد الباطلة التي نشأت عليها الاجيال

عقب الاجيال بعد ان تمكن ذوي المطامع الدنيوية والنفوس الخبيثة الشريرة من خداع الناس واقناعهم بتعدد الارباب وان الاصنام هي التي ترزق وهي التي تخلق وهي التي نصرهم في الحروب ثم تقاسموا على السلطان الهيمنة على المجتمع البشري واقنعوهم بان الملوك من جنس الالهة واقتسموا بذلك السلطة الدينية والدنيوية وضمنوا خضوع الناس لهم لانهم اما ابناء الالهة او خدمة الالهة وبناء معابدها والمرتبون بها مباشرة.

وبعد مرحلة اهانة الاصنام في الاسواق تحول النبي ابراهيم (عليه السلام) الى المرحلة الثانية وهي مرحلة هدم قدسية الاصنام في نفوس المجتمع البابلي، واستغل خروج الناس في عيد لهم الى خارج المدينة ليحمل فأسه ويحطم الاصنام تاركاً الصنم الكبير وقد علق الفأس على عاتقه. ولنا ان نتصور مدى البلبلة والاضطراب الذي حصل في بابل بعد ان وجد الكهنة ان الالهة قد حطمت ولم يبق الى الصنم الكبير ومن الطبيعي ان تحصل هزة اجتماعية كبيرة ترافقها اجراءات السلطتين الدينية والزمنية للبحث عن الفاعل وانزال اشد العقوبات به.

وكان توجيه الاتهام الى النبي ابراهيم (عليه السلام) جاهزاً فهو الذي كان يجاهر باهانة الاصنام ويدعو الى عبادة الله الواحد الاحد. فتم القبض عليه وسوقه الى القضاء لمحاسبة على التهمة الموجهة اليه، فكان (عليه السلام) وجها لوجه مع النمرود الطاغية المتجبر الذي كان يرى نفسه رباً يعبد من دون الله، فسأل النبي ابراهيم (عليه السلام) عن خصوصيات ربه فاخبره النبي ابراهيم (عليه السلام) ان ربه يحيي ويميت فاجابه انه ايضاً يحيي ويميت وكان دعوى النمرود مقبولة عند مجتمعه لانهم يعتبرون قراره في القتل واطلاق السراح احياء واماته فاحتج النبي ابراهيم (عليه السلام) عليه بان ربه يأت بالشمس من المشرق فاذا كان النمرود رباً فليأت بالشمس من المغرب فبهت الذي الكفر ولم يبق امام النمرود وكهنة المعبد الا القضاء على النبي ابراهيم (عليه السلام) دفاعاً عن كرامة الالهة وانتصاراً لها.

والذي يمكن استفادته من محاورة النبي ابراهيم (عليه السلام) مع النمرود ان المجتمع البابلي كان يؤمن بتعدد الالهة فلم ير ضير من عبادة النبي ابراهيم (عليه السلام) لرب غير النمرود ولكنه ولذا كانت محاكمة النمرود لإبراهيم (عليه السلام) لإثبات انه اقدر من اله النبي ابراهيم (عليه السلام) ولكن بعد ان رده النبي ابراهيم (عليه السلام) بما لم يمكنه ان يجيبه عليه قرر القضاء

عليه لان بقاءه يعني تقليل هيبة الاصنام والنمرود في نفوس الناس وبالتالي خسارته لجميع مكاسبه، وفي عين الوقت كان النبي ابراهيم (عليه السلام) يريد تحقيق تحرير الناس من عقيدة عبادة الاوثان واعتقاد ربوبية النمرود وان هذا لن يتحقق الا اذا ثبت للناس ان اله النبي ابراهيم (عليه السلام) اقدر من النمرود ومن الاصنام التي يعبدونها فيكون ذلك الطريق الى هداية الناس الى الله ونبذ عبادة الاصنام والوثان ودعوتهم الى طريق الحق والهداية وان بناء الانسان لن يتم الا بعد تحرره من عقائده الفاسدة وتيقنه ان رب النبي ابراهيم (عليه السلام) هو الرب الحق وان دينه هو الدين الحق الذي يجب ان يتبع.

وفي الجولة الثانية بين النبي ابراهيم (عليه السلام) ومجتمع الشرك التي بقي فيها النبي ابراهيم (عليه السلام) في النار وانقذه الله منها وافشل ما كان يحلم به النمرود وكهنة المعبد ثبت للناس ان اله النبي ابراهيم (عليه السلام) اقدر من النمرود والاصنام فاهتزت عقيدة الناس الا ان جبروت السلطة وسطوتها وارهابها له اثره في ضعف انتقال الناس من الوثنية الى التوحيد، فلم يبق بد من طرد النبي ابراهيم (عليه السلام) من بابل، فغدا النبي ابراهيم (عليه السلام) سائحاً في الارض فتارة في مصر واخرى في غيرها وفي كل تلك البلدان يدعو الى عبادة الله الواحد الاحد ونبذ عبادة الاصنام فأوجد في اوساط المجتمع المصري بعض الموحدين وكذلك ارسل هاجر وولدها اسماعيل (عليه السلام) ليكونوا منار التوحيد في جزيرة العرب ورفع لهم قواعد البيت العتيق وعلمهم مناسك الحج وتعاليم شريعة السماء.

وظهر في المجتمعات التي بلغها خبر النبي ابراهيم (عليه السلام) توحيد الله تعالى على الرغم من كون الوثنية والشرك هي الدين والسلطة الحاكمة في ربوع الارض فلم يتوف الله النبي ابراهيم (عليه السلام) حتى كان التوحيد ظاهرة بينة في المجتمع البشري تمتد في جزيرة العرب وبلاد الشام ومصر، فلم يهلك الله تعالى تلك الشعوب على الرغم من شركها لانها كانت قابلة لان تتحول من الوثنية الى التوحيد ومن شريعة عباد الاصنام الى شرع الله تعالى لا قوم لوط الذين كانوا مصريين على الخروج عن ناموس الطبيعة ولا استعداد لهم لتقبل الهداية باي شكل واي صورة فأهلكهم الله تعالى وكانت تلك المدينة الوحيدة التي اهلكها الله في ايام النبي ابراهيم (عليه السلام).

ومن هنا يمكن ان نتبين لنا عدة امور:

1. ان المجتمع البشري تطور من الناحية الادارية والفنية والثقافية بعد طوفان نوح (عليه السلام) بحيث ظهر مجتمع الدولة وضمحل مجتمع القرى المتناثرة.
2. تمكن عباد الاوثان من السيطرة على اذهان المجتمع البشري وتحويل اعتقاداتهم الى الديانة الوثنية ثم تقاسموا السلطة مع الحكام فاصبح للكهنة السلطة الدينية وللحكام السلطة الادارية وقيادة الدولة وتعاملوا على اساس تبادل المنافع فكانت المعابد تسند السلطة بما لها من عمق روحي في الاوساط الاجتماعية كما كانت السلطة تدعم المعابد بما لها من قدرة مالية وعسكرية.
3. من طبيعة الجزاء الالهي مع قوم نوح ثم عاد وشمود وقوم لوط يتضح ان العقوبة العامة لا تقع الا في المجتمع الذي لا يوجد امل في صلاحه في الحال او المستقبل.
4. ان دعوة الانبياء (عليهم السلام) قائمة على اساس بناء الانسان وهو الهدف الاساس الذي في حال تحققه يتحقق بناء المجتمع والدولة على الاسس التوحيدية واتباع الشرائع الالهية.
5. ان ما يفهم من سيرة نوح واسحق ويعقوب واسماعيل ويوسف (عليهم السلام) ان تشييد السلطة غايته بناء الانسان فاذا لم يكن المجتمع مهياً لتقبل سلطة المجتمع الموحد فلا يتصدى الانبياء لاقامة الدولة، لذلك كان الانبياء (عليهم السلام) يعيشون كمواطنين ضمن الدولة ويمارسون نشاطهم في الدعوة الى الله والنهوض بالمجتمع الانساني، ومن اوضح المصاديق على ذلك تصدي يوسف (عليه السلام) لمنصب ادارة الثروة والاقتصاد في مصر حيث لم يتصد لاسقاط الحكم المصري واقامة حكومة يراسها هو (عليه السلام) بل استغل فرصة الحاجة اليه للدعوة الى الله الامر الذي نتج عنه اعتناق امنحوتب الرابع ديانة التوحيد وامر بترك عبادة الاوثان وعاقب عليها، الا ان المجتمع المصري بعد وفاة اخناتون وتولي صهره توت عنخ امون الحكم اعاد لكهنة امتيازاتهم وحارب الموحدين، وهذه المسألة - التركيز على بناء الانسان - هي حيز الزاوية في دعوة الانبياء على مر العصور.
6. ومن هنا يمكن ان يقال ان السنة الالهية الجارية في المجتمع البشري يمكن ان يلاحظ فيها:

- أ- نصب انبياء مبلغين عن الله لاحكام شرعه، وان المجتمع البشري الاول والى فترة طويلة على الارض كان مجتمع التوحيد.
- ب- ان الانحراف العقائدي والبعد عن الله وترك شريعته ليست دائماً سبباً للانتقام الالهي من العصاة بل وصول المجتمع الى حالة ميئوس فيها من العودة الى الله هو الذي يتسبب في اهلاك الله تعالى للامم المنحرفة.
- ت- على طول خط الدعوة الى الله تعالى منذ ادم وحتى يوسف (عليه السلام) لم يتصد احد من الانبياء لادارة الدولة وتشبيد السلطة بل كان دأبهم الدائم بناء الانسان والانطلاق منه للتأسيس لمجتمع التوحيد.

الدور الثالث

اقامة دولة التوحيد على يد انبياء بني اسرائيل

ان مما ينبغي الالتفات اليه في قراءة السن الالهية في الامم ان الله تعالى شاء ان تكون الحياة الدنيا دار ابتلاء للانسان يتنازع الانسان فيها القيم الروحية والاخلاقية والشرعية التي ارادها الله تعالى ونوازع الانسان الذاتية، وقد اكد القران الكريم ان النهاية تكون لما يريد الله تعالى (والله غالب على امره)، ولادراك هذه الحقيقة علينا ان نقرأ تاريخ الانسانية كي نفهم كيف كانت تسير الامور بين ما يريد الله تعالى وما يصبوا اليه الانسان، ومن قراءة تاريخ الانسان وطبيعة التوجيهات الالهية له نجد ان مجمل التعاليم الدينية تتناول الفرد والمجتمع وان التشريعات التي تتعلق باقامة الاحكام وبناء السلطة انما هي بالقدر الذي يحقق الغاية في بناء الفرد والمجتمع وتأمين حاجاته وبسط العدل والفصل في النزاعات، على العكس من الاتجاه البشري القائم على اساس تشييد السلطة وان كان ذلك على حساب الحق والفرد والمجتمع.

ومن هنا نجد ان ما قبل موسى (عليه السلام) لم يقم الانبياء (عليهم السلام) بالتصدي لبناء الدولة لان مقومات بناء الدولة في المجتمع الموحد غير متحققة فضلاً عن قدرة المجتمعات الكافرة التي تشكل خطراً وجودياً على مجتمع الوحيد، فلو قام الانبياء (عليهم السلام) انذاك بتشيد دولة التوحيد لاجتثهم ملوك الارض المشركين وقضوا عليهم تماماً، فمن هنا نجد ان تكليف الانبياء السابقين على موسى (عليهم السلام) كان منحصراً في بناء الفرد الموحد ومجتمع التوحيد.

كانت اول بداية تأسيس لدولة التوحيد على يد يوسف (عليه السلام) عندما تولى منصب عزيز مصر بعد خروجه من السجن وحادثة المجاعة التي اصابت العالم في وقته وتمكن (عليه السلام) بما حباه الله من انقاذ المجتمع الانساني من الموت جوعاً، وقد ترك ذلك اثراً كبيراً على حاكم مصر حوله من دين الشرك الى ديانة التوحيد ووجهة ضربة كادت ان تقضي على عبادة آمون في مصر ودعى الى عبادة الاله الواحد (اتون) وكان ليعقوب ويوسف (عليهما السلام) دور كبير في النهوض بالواقع الفكري في الامة المصرية فضلاً عند الاعداد الروحي لبني اسرائيل، الا ان وفاة اخناتون ووصول صهره توت عنخ امون الى سدة الحكم ادى الى عودة المصريين الى عبادة الاوثان وتم التضييق على الموحدين، وفي هذه الفترة والفترة السابقة كان

المصريون يعتقدون ان الملوك من سلالة الالهة ولذا فإن العائلة المالكة في الثقافة المصرية آنذاك كانت لها قداسة خاصة.

واستمر الحال في مصر على ذلك حتى تركزت حالة عبادة الاشخاص فاصبح الفرعون الهاً مطلقاً كما كان النمرود في بابل، واستضعف بنو اسرائيل بشدة وتم استعبادهم وقهرهم، ويبدو ان كثرة تناسل بني اسرائيل والتزامهم بديانة التوحيد كان يشعر المصريين بالخطر الامر الذي دعى الفرعون الى قتل المواليد الذكور واستبقاء الاناث، وبعد ان كاد رجال بني اسرائيل ان ينقضوا وهم يمثلون عمدة اليد العاملة التي يعتمد عليها في الكثير من الاعمال التي تتعلق بالبناء والزراعة والرعي قرر فرعون تعديل قراره فكان يقتل الذكور في سنة ويستبقيهم في سنة اخرى فكانت ولادة هرون بن عمران (عليهما السلام) في السنة التي لا يقتل فيها الذكور وولد موسى (عليه السلام) في السنة التي يقتل فيها الذكور فاوحى الله الى امه ان تضعه في تابوت وتلقيه في اليم، فحمله الماء الى قصر فرعون فاننتشلوه وتعلق قلب السيدة اسية (رضوان الله عليها) به فتمكنت من حمايته من خطر القتل ثم اعاده الله تعالى الى امه لترضعه، وهكذا نشأ موسى (عليه السلام) بين قصر فرعون وبيت عمران (عليه السلام) ليحقق الله تعالى انتقاله اخرى في واقع مجتمع التوحيد لم تكن لها سابقة، حيث قاد موسى وهرون (عليه السلام) ثورة في وجه فرعون انتهت بانتصار موسى (عليه السلام) على فرعون في الحادثة المعروفة في يوم الزينة بعد ان فشل السحرة في الانتصار على آيات موسى (عليه السلام) وادركوا عظمة ما جاء به موسى فأمّنوا به وكان ذلك اكبر ضربة للعقيدة الفرعونية التي فشلت في مواجهة موسى (عليه السلام) فقرر فرعون في النهاية القضاء على بني اسرائيل فتوجه بهم موسى (عليه السلام) الى خارج مصر حتى وصلوا الى البحر فحاول فرعون ادراكهم والقضاء عليهم عسكرياً ففلق الله لهم البحر واغرق فرعون وجنوده.

كان وجود بني اسرائيل في مصر مسألة مهمة في التمهيد للاعداد لقيام الدولة، فالدولة تحتاج الى عدة مقومات منها الدستور والادارة والكفاءات والامن والخامس العقيدة.

والدستور تم تقديمه لموسى (عليه السلام) عند ذهابه لميقات ربه كي يكون دستور الدولة التي سيحكم به انبياء بني اسرائيل، وفن الادارة وادارة منابع تعلمه بني اسرائيل في الفترة التي امضوها في مصر والتي امتدت بين ايام يوسف (عليه السلام) وحتى خروجهم من مصر، واما

اعداد الكفاءات فانجره موسى (عليه السلام) في فترة التيه في الصحراء حيث تم تنقية مجتمع بني اسرائيل من رواسب الفترة المصرية التي تأثر بنو اسرائيل بعقائد المصريين واخلاقياتهم وسلوكهم فكانت فترة التيه فترة تطهيرة واعداد واضحة للمجتمع على اساس العقيدة والاخلاق والفكر فضلاً عن تطهير الشخصية من رواسب فترة العبودية التي اعتاد فيها بنو اسرائيل على الخنوع والخضوع والذل والاتكالية فكانت فترة التيه فترة اعداد منقطة النظر لمجتمع بني اسرائيل لتتميم اعداده لادارة الدولة على الاسس التي يريد الله تبارك وتعالى.

لقد كان ظهور دولة التوحيد على يد يوشع بن نون (عليه السلام) في ارض فلسطين تمثل تحولاً اجتماعياً كبيراً ويشير الى تغير في معادلات القوى على الصعيد العالمي، وبنظرة الى الواقع التاريخي للمنطقة فإن المصريين كانوا يسيطرون على افريقيا فيم يسيطر حكام وادي الرافدين والفرس على شرق العالم.

وتمكن بني اسرائيل من اقامة دولة التوحيد في فلسطين يكشف عن ان الدولة المصرية بعد غرق فرعون مرت بدور من الضعف والهوان الكبيرين بحيث فقدت السيطرة على بلاد الشام، التي كانت غالباً ما تقع تحت نفوذها، وفي المقابل كان الفرس وحكام وادي الرافدين ايضاً بقدر من الضعف لم يمكنهم من بسط نفوذ قوي على بلاد الشام بحيث يتمكنوا من منع بني اسرائيل من اقامة دولتهم في تلك البلاد، ويظهر ايضاً ان سوء الادارة والضعف كان هو الامر الواقع في بلاد الشام بحيث تمكن بنو اسرائيل على قلة العدد النسبية من القضاء على الادارة الحاكمة واقامة دولتهم هناك.

كما يمكن القول ان بني اسرائيل تمكنوا من مد نفوذهم من خلال التبشير والدعوة الى الله لتصل الى شبه جزيرة العرب فيعتقد بعض العرب اليهودية كما يشير الى ذلك اعتناق بعض حكام اليمن اليهودية، وهو مؤشر اخر على ان جزيرة العرب كانت الديانة فيها ديانة التوحيد بسبب تأثير اسماعيل وابنائهم ووجود البيت الحرام الذي كانوا يحجون اليه ويؤدون المناسك في الحج والعمرة طبقاً لتعاليم النبي ابراهيم (عليه السلام).

فكانت دولة يوشع بن نون (عليه السلام) اول دولة توحيد بما تحمله معاني الدولة من وجود دستور حاكم وسلطة تنفيذية وسلطة تشريعية وقضاء ومقومات اقتصادية وسياسية وامنية لتكون

الدولة النبوية الاولى التي تقع بين دول يعتنق بعضها الديانات الارضية المشركة كالبابليين
والمصريين فيم يعتنق الآخرون ديانات ذات اصول توحيدية كالفرس الذين اعتنقوا المجوسية.

كما يبرز ظهور الدولة النبوية على يد انبياء بني اسرائيل ان المجتمع الانساني اصبح مهيناً
لقبول ظهور دولة توحيد نبوية وان تلك المرحلة من تاريخ المجتمع البشري تمثل الامتداد الطبيعي
لدعوة النبي ابراهيم (عليه السلام) الى التوحيد وبناء الفرد والمجتمع على اساس القيم الدينية
الالهية في ابعادها الاخلاقية والشرعية والعقائدية.

الدور الرابع

الدولة النبوية في جزيرة العرب

تقدم ان النبي ابراهيم (عليه السلام) دعى للتوحيد في بلاد الرافدين والشام ومصر وفارس وتوسعت دعوته الى بلاد الهند والصين، مع ملاحظة ان المجتمع البشري في تلك الفترة ربما لم يكن بهذه السعة التي اشرنا اليها، ولكن البحوث الاثرية تشير الى وجود اثار عن المجتمعات الاولى في الهند والصين تمتد الى بعضة الاف سنة قبل الميلاد، وهذا لا يعني ان نجزم بعدم وجود حياة بشرية في تلك البقاع قبل تلك الحقبة الزمنية لكن هذا ما تمكن الانسان من الوصول اليه اليوم وربما سيتمكن في مستقبل الايام من العثور على ادلة اكثر تثبت له عمق حياة الانسان على الكرة الارضية، ومن كتب عن حضارات الامم اشار الى عقيدة التوحيد في الديانات الاولى في مختلف الديانات الحية الان كالبودية والهندوكية والمجوسية هذا فضلاً عن اليهودية والمسيحية والاسلام.

فدعوة النبي ابراهيم (عليه السلام) انطلقت من بلاد بابل لتعم الكرة الارضية في تلك الازمنة الموهلة في القدم، فاصبحت كل الارض فيها مشعل نور يدعو الى دين النبي ابراهيم (عليه السلام).

واسلفنا ان ارقى مستوى اجتماعي وصل اليه الموحدون كان متمثلاً بقيام دولة التوحيد في بلاد الشام على يد انبياء بني اسرائيل (عليهم السلام)، الا ان الطبيعة البشرية للانسان ورغبته في التمرد وانانيته وحببه للسلطة ادى الى تكرار مأساة الانسانية، فبنوا اسرائيل بدلاً من ان يأخذوا على عاتقهم بذل كل ما في وسعهم لاقامة حكم الله على الارض اتبعوا الشهوات وتآمروا على مقام الانبياء وسلبوهم السلطة وظهرت طبقة الكهنة التي تولت السلطة الدينية في البلاد حتى ابتلوا بالذل حتى ظهر داود (عليه السلام) فاعاد بناء دولة التوحيد وحكم بعده سليمان (عليه السلام) ليمتد ملكه الى ارجاء واسعة من الارض، الا ان المجتمع لم يكن مؤهلاً للمضي قدماً في بناء دولة الله على الارض فلم تمض الايام حتى انقسم بنو اسرائيل الى دولتين متنازعتين متحاربتين وحرفوا احكام الكتاب العزيز وغيروا الشريعة الموسوية المقدسة وانتهكوا حرمة الانبياء حتى قتلوا زكريا ويحيى واتهموا مريم وحاولوا قتل عيسى (عليهم السلام).

ان صراع بني اسرائيل فيما بينهم ادى الى وهنهم وضعفهم وبدلاً من تعاضم قدرتهم غزاهم البابليون وانهوا دولتهم وعاشوا السبي البابلي حتى تمكن الفرس من اسقاط دولة بابل واعادوا من رغب منهم الى بلاد الشام، ولم تمض الايام طويلاً حتى غزتهم قوى الرومان المشركين الذين تنصروا فيما بعد وانهوا بقايا مظاهر دولة بني اسرائيل.

اصبح العالم مقسماً بين البوذيين في شرق الارض والمجوس في بلاد فارس الامبراطورية الكبيرة الممتدة من الصين وحتى بلاد الشام والنصارى الذي انتشروا في الشمال الافريقي والحبشة وبلاد الشام واوروبا وبلاد الروم والبلاد الروسية، فيما ظهر الشرك في جزيرة العرب ايام تسلط خزاعة على مكة بعد طردهم جرهم منها، وكانت تلك الفترة مرحلة التمهيد لظهور الاسلام في جزيرة العرب.

وعند المقايسة بين ظروف ظهور دولة بني اسرائيل وظروف الدولة النبوية نجد ان العالم في عصر ظهور دولة بني اسرائيل كان منقسماً بين دولة الشرك في بلاد الرافدين والبوذيين في الشرق والمجوس في بلاد فارس والفرعنة المشركين في مصر فكانت بذرة ظهور دولة التوحيد في بلاد الشام رافقها احاطة منطقتهم بالقوى العالمية المشتركة اذا استتينا بلاد فارس والبوذيين.

واما عند ظهور الاسلام فكانت المنطقة منقسمة بين النصارى في بلاد الشام وافريقيا واروبا وبلاد الاناضول وبلاد الروس والمجوس في العراق وبلاد فارس واليمن والحبشة والبوذيين في شرق الارض والمشركين في جزيرة العرب.

وكما ان الظروف الموضوعية لظهور دولة بني اسرائيل مقترنة بضعف الدول الكبرى المحيطة بها فكان كذلك ظهور الدولة النبوية مقترنا بضعف الدولة الفارسية والدولة الرومانية المحيطتين بجزيرة العرب.

وعند ملاحظة توزع الاديان في المنطقة نجد ان جزيرة العرب تمثل مركزاً مهماً لعبادة الاوثان في الكرة الارضية انذاك، اذ ما يحيط بها من اديان كانت ادياناً ذات جذور الهية فالنصرانية والمجوسية واليهودية - التي لم تعد لها دولة تضم ابناءها في تلك الفترة - ليست اديان شرك، وكان هذا احد الفوارق الاجتماعية والفكرية بين ظهور دولة التوحيد على يد انبياء بني اسرائيل

(عليهم السلام) وظهور الدين الاسلامي في جزيرة العرب حيث كانت دولة بني اسرائيل محاطة بدول الشرك فيم كانت الدولة النبوية في جزيرة العرب محاطة بدول غير مشركة.

لقد كان ظهور الدولة النبوية في جزيرة العرب ايذاناً بانتهاء الشرك في اغلب الكرة الارضية وان بقيت هناك ديانات شركية فانها ستكون شاذة وليس لها تأثير كبير على الصعيد الفكري⁷، وهذا يحقق المرحلة الاولى من مراحل التهيئة العامة للمجتمع البشري نحو تحقيق الارادة الالهية في الارض على يد الانسان.

اعلن النبي (صلى الله عليه واله) ومنذ اوائل بعثته الشريفة ودل على ذلك آيات الذكر الحكيم انه بعث مصدقاً لما بين يديه من التوراة والانجيل وان الله تعالى انزل عليه القران ليكون خاتمة الكتب الالهية ولتكون شريعته خاتمة الشرائع السماوية ويكون هو خاتم الانبياء والمرسلين، وهذا يدل على ان المسيرة الاجتماعية لبني الانسان حسب التخطيط الالهي قد بلغت مرحلة النضج من جهة نزول التشريعات المناسبة لرقى وتطور الواقع الانساني على الارض اذ من الواضح للمتتبع لسير الواقع الاجتماعي للانسان والتشريعات التي يكون بحاجة اليها في ظرفه الزماني ان المجتمع الانساني الاول كان عائلة فكانت التشريعات الواصلة اليهم تتناسب مع حجم العلاقات التي يحتاجها الانسان في علاقاته التبادلية بين الافراد، ثم تطور الى مجتمع القرى فكانت التشريعات التي تصل اليهم تتناسب مع وضعهم ذاك كما كان في عهد ادريس ونوح (عليهما السلام) ثم تحول الحال الى مجتمع الدول والكيانات الكبرى والتي عاصرت عهد النبي ابراهيم (عليه السلام) فلما بلغ النضج الاجتماعي في ذلك الدور مدى معيناً ظهرت اول دولة توحيد على الارض في على يد انبياء بني اسرائيل (عليهم السلام) والتي وضحت اثرها فيما بعد في القضاء على مجتمع الشرك في غرب الكرة الارضية الممتد في اوروبا وشمال افريقيا وبلاد الاناضول وروسيا.

عند قراءة الظروف الموضوعية التي احاطت الدولة النبوية نجد ان اعظم امبراطوريتين في ذلك التاريخ وهما الامبراطورية الفارسية والرومانية كانت تعيشان خريف عمرهما الحضاري والسياسي مما اضعف دورهما كثيراً في القضاء على الدين الاسلامي عند ظهوره، كذلك كانت جزيرة العرب منطقة صعبة جداً لا يمكن لجيوش الامبراطوريتين خوض حرب مكلفة جداً فيها لسعة الارض

⁷ كما هو حاصل اليوم من وجود بعض المجتمعات الوثنية في الهند وافريقيا

وصعوبة الحياة وعدم توفر ما يؤمن حاجة الجيوش لحرب طويلة في ذلك الوقت في تلك المنطقة القاحلة، وهو احد الاسباب الذي حفظ استقلال القبائل العربية عن هيمنة الدول الكبرى في ذلك الوقت عكس ما تعرضت له القبائل العربية التي سكنت العراق وبلاد الشام من خضوع مباشر للامبراطوريتين الفارسية والرومانية بسبب خصوبة الارض وامكانية توفير ما تحتاجه الجيوش والقوات بسبب وفرة الخيرات في تلك المنطقة.

كما ان القبائل العربية كانت تتمتع باستقلال كبير في ادارة شؤونها وطريقة تعاملها، مضافاً الى وجود حياة منظمة فيها كما في اليمن ومكة والمدينة، كما كان المجتمع البدوي في جزيرة العرب متمرساً على القتال والحروب وهي نقطة مركزية كان يفنقدها مجتمع بين اسرائيل الامر الذي انتهى ببقائهم في الصحراء اربعين سنة حتى ظهر مجتمع جديد بعيد عن الخنوع والذل والهوان والاتكالية. فمقومات المجتمع الذي يمكن ان يقيم الدولة كانت متحققة فجزيرة العرب :

1. ذات طبيعة قاسية توفر قدراً مهماً من الامن على الصعيد الدولي انذاك اذ لم تتعرض طيلة الفترة الزمنية الممتدة عبر العصور لغير غزو ابرهة الحبشي لمكة المكرمة، ولم يتمكن سوى الملك تبع من اقامة دولة سرعان ما تفتت.

2. تميز المجتمع القبلي بالفروسية والشدة والقوة والغزو بحيث كانت الطبيعة تقتضي ان يكون ابناء القبائل متدربين على حمل السلاح وفنون القتال بالاسلحة المتوفرة في تلك الازمنة، وعلى الرغم من التطور في الامبراطوريات المحيطة بهم في مختلف الجوانب الحضارية والعمرانية والثقافية الا ان التفوق العسكري لم يكن كبيراً، حيث كانت الاسلحة هي الرماح والسيوف والنشاب، ووسائل النقل الخيول والبغال والابل، يستثنى من ذلك المنجنيق وهو انما ينفع في ضرب المدن المحاصرة، وكان الجيش الفارسي قد ادخل الفيلة في وسائل نقله، اي لم يكن بين تلك الامبراطوريات الكبرى وسكان جزيرة العرب تفاوت كبير من حيث تقنيات التسليح.

3. كانت القبائل العربية مطلعة على ديانات التوحيد فالمسيحية - مضافاً الى اعتناق اليمنيين والمناذرة والغساسنة لها - كانت جملة من القبائل العربية تعتنقها كقبيلة كلب كما كان اليهود منتشرين في مناطق كثيرة من جزيرة العرب، مضافاً الى بقاء جملة من العرب على شريعة النبي ابراهيم (عليه السلام) ومنهم بنو هاشم.

4. وجود الثروات الطبيعية الكثيرة التي تمكن العرب من الاستغناء عن الدول الاخرى فلا تكون بحاجة الى الامدادات الخارجية فيما لو وقعت الحرب لان ارض الجزيرة ارض كبيرة وواسعة وفيها خيرات وامكانيات مادية تؤهلها لمقاومة اي حصار يمكن ان يفرض عليها اذ فيها انتاج كبير للتمور وثروة حيوانية هائلة كما كانت تسيطر على خط التجارة الواصل بين اليمن وبلاد الشام.
5. انحصار القيادة الروحية للشرك في مكة المكرمة فبمجرد فتح مكة سنة 8 للهجرة انتهى الشرك في جزيرة العرب ولم تمض سوى سنتين حتى امتدت الدولة النبوية الى حدود العراق وبلاد الشام شمالاً وبحر العرب جنوباً والخليج شرقاً والبحر الاحمر غرباً.
6. انشأ النبي (صلى الله عليه واله) دولة في المدينة المنورة ادارها بصورة مباشرة منذ السنة الاولى للهجرة وحتى شهادته (صلى الله عليه واله) اوائل سنة 11 هجرية وكانت دولة واضحة المعالم، كان العنصر الاساس فيها بناء الفرد والمجتمع واما تشييد السلطة وبنائها فكان حضوره ثانوياً اذ ان السلطة في الدولة النبوية كانت تولى لها الاهمية بقدر هذين العنصرين وهما بناء الفرد وبناء المجتمع وحمايته وحفظه وتنظيم شؤونه الادارية.
7. الحجر الاساس في الدولة النبوية بناء الانسان الامر الذي بان واضحاً في الايات القرآنية الكريمة ووصايا النبي (صلى الله عليه واله) وتعاليمه الروحية والاخلاقية بل والتشريعية.

المبحث الثاني

المشروع الحضاري الاسلامي

ويقع البحث فيه في ثلاث ابعاد:

الاول: موقعية الفرد في المشروع الحضاري الاسلامي

الثاني: موقعية المجتمع في المشروع الحضاري الاسلامي

الثالث: موقعية السلطة وديمومة المشروع الحضاري الاسلامي

البعد الاول

موقعية الفرد في المشروع الحضاري الاسلامي

اولى المشروع الحضاري الاسلامي اهمية كبرى لبناء الفرد، لان الفرد هو اللبنة الاساسية التي ينطلق منها في بناء المجتمع، ولذا وردت الكثير من النصوص التي تناولت بناء الفرد فكرياً ورسمت له طرق الوصول الى درجات الكمال.

الدعوة النبوية عند انطلاقها جاءت في وسط مجتمع سبق له ان عاش في ظل دعوة النبي ابراهيم (عليه السلام) وترسخت آثار تلك الدعوة على يد اسماعيل (عليه السلام) وبنيه من بعده، الا ان هيمنة النزاع الذاتية لدى ابناء الانسان مع وجود تنافس وصراع طبيعي للوصول الى المواقع المهمة اجتماعياً واقتصادياً اسهم في ابعاد بني اسماعيل عن ساحة ادارة مكة المكرمة التي كانت مركزاً دينياً في جزيرة العرب لتتولى قبيلة جرهم ادارة شؤون البيت الحرام وبعد مضي وقت ليس بالقصير وقع الجرهميون فيما وقع فيه بنو اسماعيل فتمكنت خزاعة من ازاحتهم عن ادارة مكة وتولي شؤون البيت الحرام وفي عهدهم ادخلت الاصنام الى الكعبة وجرت دعوة الشرك في جزيرة العرب، ثم تمكن قصي بن كلاب القرشي من جمع شتات بني اسماعيل واعادة سيطرتهم على مكة المكرمة.

فالمجتمع العربي على الرغم من بداوته الا انه كان متأثراً الى حد كبير بالقيم التي غرسها فيه ال النبي ابراهيم (عليه السلام)، ولذا عندما اعلن النبي (صلى الله عليه واله) دعوته الى الاسلام كانت هناك ارضية قابلة لتلك الدعوة يقابلها اصحاب مصالح ونفوذ كانت تقوم بكل ما يمكنها لاجل منع انتصار الدعوة الجديدة حفاظا على المكاسب التي تحققت لها عبر تاريخ طويل من التنافس والصراع بين القبائل القرشية.

فجوهر الصراع بين قريش والنبي (صلى الله عليه واله) كان في واقعه يدور حول الانسان وهل ان الانسان يجب ان يكون كما يريد الله ام انه يجب ان يكون كما يريد اصحاب المواقع والمقامات والمناصب، فمن هنا ينطلق واقع الصراع الازلي بين الداعين الى عبادة الله والداعين الى عبادة النوازع والشهوات، وهي مسألة ازلية كان اول مصداق بارز لها مسألة السجود لآدم التي افقدت ابليس الموقع الذي جهد في الحصول عليه للقرب من الرب حتى فاق موقعه

كمخلوق من الجن ليكون رديفاً للملائكة، الا ان ذلك الاختبار اظهر عدم اهليته وان ابليس كان هوسه في عبادة ذاته، فلما امره رب العزة بأن يخرج عن حاق عبودية الذات الى عبودية الرب فشل في ذلك الاختبار، ثم عاد ذلك النحو من النزعة المتمردة الساعية لعبادة الذات ليظهر بوضوح في جريمة ابن ادم الذي قتل اخاه ظلماً وعدواناً ثم تكرر على يد مجتمعات الشرك التي كانت تمثل اعلى مراتب عبادة الذات حتى اهلكهم الله بمختلف العقوبات، ثم ارتقى ذلك النحو من الخروج عن سلطان الله باعلان بعض الطواغيت انهم آلهة او من نسل الآلهة ليضمنوا تقديس المجتمعات الساذجة لهم ويؤمنوا بذلك هيمنتهم وسلطتهم وامتداد تلك السلطة في ذريتهم كما فعل النمرود وفرعون.

الاديان الالهية في مختلف الازمنة والعصور اكدت على مسألة بناء الانسان، لان الارادة الالهية شاءت ان يتحقق مجتمع التوحيد في الارض بناءً على قناعة الايمان المنبعث من جوهر الفرد، وقد منح الله تعالى الانسان القدرة على التمييز (الم نجعل له عينين ولسانا وشفقتين وهديناها النجدين) ووهبه قدرة التفكير والتمييز وخاطبه في العديد من النصوص القرآنية في الرجوع الى فطرته واعمال فكره وتسخير قدرته العقلية للوصول الى الحقيقة (ولو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) (افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الارض كيف بسطت) فهذه الدعوة من الله تعالى الى التفكير والتأمل الغاية منها اخراج الانسان من حاق عبادة الذات واتباع الظنون والاهوام الى العالم الاوسع الى المعرفة والوصول الى الحقيقة والانطلاق في مجال العلم والبحث والتحقيق ورفض الخرافات والاكاذيب والجهل والادعاءات الباطلة، فما يخرج الانسان من دائرة اتباع من يسخره لاجل مصالحه الى دائرة الحقيقة فإنه سيكون آلة في يد الغير لتحقيق مطامع ذلك الغير واهدافه غير النبيلة.

وحيث ان الله تعالى قد علم في واقع الانسان انه بحاجة الى من يأخذ بيده ليوصله الى شاطئ الامان (ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه) فإنه بعث الانبياء والمرسلين ليأخذوا بيد الانسان الى الحق والحقيقة وقد ميز الله تلك الذوات المقدسة التي بعثها لبني الانسان بخصوصيات ميزتهم عن باقي البشر وقد وردت الاشارة الى تلك الخصوصيات في القرآن الكريم تحت عنوان الاصطفاء والاستخلاص (ان الله اصطفى ادم ونوحا ابراهيم وال عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم) (فبعزتك لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم

المخلصين) على الرغم من انه خلقهم على هيئة البشر فهم يأكلون الطعام ويمشون في الاسواق ويتزوجون ويمرضون ويموتون.

فالغاية من بعث الرسل والانبياء (عليهم السلام) هداية الناس الى الحق وبيان طريق الوصول الى الحقيقة وهو تعبير اخر عن بناء الفرد والاخذ بيده في مدارج الكمال التي تظهر بوضوح في وصية النبي (صلى الله عليه واله) لأمر المؤمنين (عليه السلام) بقوله (يا علي لأن يهدي الله بك امرأً خيراً لك مما طلعت عليه الشمس) فبناء شخص واحد في المفهوم الحضاري الاسلامي اعظم قدراً واعلى قيمة من الامكانيات المادية باسرها.

لقد بلغ من اهتمام القرآن الكريم بالفرد الانساني ان الله تعالى يظهر في آيات كتابه مدى الاهتمام بهداية الانسان فيقول (يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون) وأشار القرآن الكريم الى مدى الاسى الذي كان يعتصر قلب النبي (صلى الله عليه واله) وهو يرى ان بني الانسان لا يعيشون في واقعهم عمق ما يقتضيه الايمان (ولعلك باخع نفسك الا يكونوا مؤمنين).

فالفرد اذن يحتل موقعاً مهماً في المشروع الحضاري الاسلامي، الامر الذي تكشف عنه التشريعات الكثيرة التي تستهدف بناء الذات الانسانية لتحريرها من رق عبودية النوازع الذاتية والشهوات الأنسية لتسموا بها الى تهذيب الغرائز وتنقية السرائر والسعي الى تحقيق سمو الذات بتحقيق القرب من الله لتحقيق السعادة الدنيوية والفوز الاخروي:

(الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمرؤا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور)⁸

ومن نجد في المشروع الالهي لبناء الانسان التأكيد على القدوة الذي يجب اتباعه ففي كل دورة من حياة بني الانسان نجد ان الله تعالى نصب لكل قوم من يهديهم الى سواء السبيل وهذه السنة الالهية جارية في جميع الامم والمجتمعات البشرية وقد ختمها بالنبي (صلى الله عليه واله) الذي بين القرآن الكريم انه القدوة والاسوة في كل شيء (ولكم في رسول الله اسوة حسنة) ثم امر باتباعه في كل ما يصدر عنه (صلى الله عليه واله) حيث قال (وما آتاكم الرسول فخذوه وما

⁸ الحج: 41

نهاكم عنه فانتهوا) ومما آتاه الرسول (صلى الله عليه واله) لاتباعه انه اخبرهم انه راحل عنهم وانه مخلف فيهم ما ان تمسكوا بهما لن يضلوا بعده ابدأ كتاب الله وعترته اهل بيته وانهما لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض، وقد ابلغهم الله في كتابه العزيز ان ولي امرهم بعد النبي (صلى الله عليه واله) أمير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام) (انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) ثم عزز ذلك رسول الله (صلى الله عليه واله) ذلك في حجة الوداع عند غدير خم حيث امر بجمع من كان معه في موسم الحج وامر برد من تجاوز منطقة خم اليها وانتظر من لم يلحق به وامر بان ينصب له منبر فجمعوا اقتاب الابل فارتقاها وخطب اخر خطبة عامة له في جموع المسلمين والتي عرفت بين المسلمين بخطبة الوداع وكان من اهم مضامينها (من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله ومن كنت انا نبيه فهذا علي اميره).

وبهذه الكلمات الشريفة للنبي (صلى الله عليه واله) حدد مسار الهداية في الامة من بعده وان الغاية من التي يرمي اليها الدين الاسلامي لا يمكن ان تحقق اهدافها الا اذا اتبعت الامة امير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام) وانما اذا اتبعت الامة اهواءها فإن امرها سينحدر تسافلاً كما انحدرت الامم السالفة التي خالفت وصايا الانبياء وتعاليم السماء، ومن مصاديق ذلك بني اسرائيل وبني اسماعيل الذين لما عصوا الله ما امرهم خسروا مواقعهم التي حصلوا عليها في الدنيا وخسروا ما كان يفترض ان يصلوا اليه من مقامات القرب الى الله تعالى بتباعهم الشهوات قال تعالى في سورة الاعراف: (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون)⁹

وقال جل شأنه: (واتل عليهم نبأ الذي آتيناها آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من

الغاوين)¹⁰

⁹ الاعراف: 169

¹⁰ الاعراف: 175

البعد الثاني

موقعية المجتمع في المشروع الحضاري الاسلامي

البعد الثاني في المشروع الحضاري الاسلامي هو المجتمع، فكما ان العديد من النصوص وردت في بناء الذات الفردية للانسان والتي تهدف الى النهوض بالفرد لكونه اللبنة الاساسية في المجتمع الاسلامي وموضع الانطلاق في بناء المجتمع، فكذلك هناك العديد من النصوص التي وردت في القرآن الكريم والسنة المطهرة فضلاً عن السيرة العملية للنبي واهل بيته (صلوات الله عليهم) التي تنطوي على واقع المسألة الاجتماعية، وان المجتمع قد حاز اهمية خاصة في المشروع الحضاري الاسلامي.

ويمكن التمييز بين النصوص الواردة في بناء الفرد والنصوص الواردة في بناء المجتمع من خلال تمييز مواضيع تلك النصوص، مع ملاحظة ان بعض النصوص تحمل المحورين معاً اي المحور الفردي والاجتماعي في آن واحد.

فمثلاً قوله تعالى في سورة المؤمنون (قد أفلح المؤمنون ﴿١﴾ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴿٢﴾ والذين هم عن اللغو معرضون ﴿٣﴾ والذين هم للزكاة فاعلون ﴿٤﴾ والذين هم لفروجهم حافظون ﴿٥﴾ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴿٦﴾ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴿٧﴾ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴿٨﴾ والذين هم على صلواتهم يحافظون) ¹¹

يمكن للقارئ لهذا النص ان يجد بوضوح دور القرآن الكريم في مسألة البناء الفردي والاجتماعي حيث ان النص هنا اشار الى خصائص متى ما تحققت لدى الانسان المؤمن كان من المفليحين والخصال المذكورة في هذا النص بعضها شخصي بحت - وان كانت فيه آثار غير مباشرة اجتماعياً - والاخرى يجتمع فيها الأثر الشخصي والاجتماعي او بعبارة اخرى انها تسهم في بناء الفرد والمجتمع.

الايمان: في النص الشريف ذكر القرآن الكريم بعض الشروط التي لا بد من توفرها لتحقيق الفلاح والصفة الاولى التي تطرق لها هي صفة الايمان، والايمان قضية شخصية اي ان التأكيد على صفة الايمان تأكيد على مسألة بناء الفرد، فالفرد غير المؤمن لا يمكن ان يكون من المفليحين،

¹¹ المؤمنون: الايات 1 - 9

وبتعدد الافراد المؤمنين في المجتمع يحتق لنا مجتمع مؤمن، لان الفرد لبنة المجتمع واساس وجوده، فهذه الصفة صفة شخصية طرحها والتأكيد عليها الغاية منه بناء الفرد واثرها غير المباشر تحقق مجتمع الايمان لان الفرد المؤمن سيؤثر في المجتمع بصورة غير مباشرة لما يتحلى به من مكارم الاخلاق وجميل الخصال التي تدفع المجتمع للتأسي والافتداء به والسير على خطاه لما سيلمسوا في نهجه من صواب وتحقيق للعدالة والامان والسعادة والاستقرار.

الخشوع: بعد ان بين القرآن الكريم تعلق الفلاح بالايمان انطلق في بيان صفات الانسان المؤمن، والصفة الاولى للانسان هي الخشوع في الصلاة، والخشوع في الصلاة مسألة شخصية بحتة، اذ ان الخشوع قضية قلبية لا يمكن لأي شخص اخر غير المصلي نفسه ان يطلع عليها، اذ هو الوحيد الذي يعلم انه عند صلاته اين كان قلبه وبمن كان فكره مشغول، وهذا التاكيد من القرآن الكريم على الخشوع في الصلاة وربط صفة المؤمن الواقعي بها، هو توجيه قرآني في بناء الذات، وبيان ان تشريع الصلاة ليس الغاية العليا منها ليس محض الوقوف وقت الصلاة مستقبل القبلة، بل ان من غايات تشريع الصلاة بناء الشخصية المؤمنة وهي التي يحققها الخشوع في الصلاة، فالخشوع في الصلاة اثر لطبيعة ارتباط العبد بالرب، فمن كان شديد الارتباط بربه كان شديد الخشوع في صلاته وكلما ضعفت درجة الارتباط ضعفت درجة الخشوع.

الاعراض عن اللغو: اللغو هو كل ما لا فائدة فيه، سواء كان ذلك قول او فعل، فكل ما لا يترتب عليه اثر ايجابي فهو لغو، وهذه الصفة الثانية التي يؤكد عليها القرآن الكريم في الانسان المؤمن، وهي ذات بعدين شخصي واجتماعي، فقد يقع من الانسان في مورد من الموارد الشخصية كما في صرفه لوقته في امور ليس من شأنها ان تضيف له شيئاً جديداً او تحقق له حاجة طبيعية، فهذا النحو من التصرف يعد الانسان فيه متلفاً لوقته مضيعاً لجهده فيكون ما يقوم به لغوا لا قيمة له، بينما يريد الله تعالى من الانسان ان يكون انساناً ايجابياً مؤثراً منتجاً موضوعياً، كما ان ذلك يتحقق في الجانب الاجتماعي ايضاً فمثلاً قد يمضي الانسان جزءاً من وقته مع الآخرين باستعراض شؤون الآخرين بما لا يعود بالنفع على اي منهم ولا لمن يتعرضوا لمناقشة شأنه، فهم بذلك جلسوا للحديث غير المثمر والذي قد يترك آثاراً سلبية سئية ربما على الصعيدين الشخصي والاجتماعي كما اذا كان ذلك المجلس مجلس غيبية، وهكذا ينجر الامر الى العديد من الامور التي تمارس في الواقع الاجتماعي دون ان تكون لها فائدة حقيقية، فتلك الامور

من الواضح انها امور سلبية لا تبني الفرد ولا تعود بالنفع على المجتمع، فتجنبها جزء مهم من مسألة بناء الذات وتوجيه المجتمع نحو الاستفادة من الطاقات وتسخيرها للبناء والتعاطي الايجابي في الواقع الفردي والاجتماعي.

ايتاء الزكاة: ايتاء الزكاة عبادة يشترط فيها نية التقرب الى الله تعالى، ففرق بين الزكاة وبين الخراج، لان الزكاة عبادة والخراج ليس كذلك، وعند النظر الى الزكاة نجد ان لها تعلقاً مباشراً ببناء الانسان وبنائه المجتمع، فالزكاة تبني في الانسان روح البذل والعطاء في سبيل الله وبالتالي تضعف تعلق الانسان بالمال، مع ما للمال من خصوصية عند الانسان، حتى قال تعالى في كتابه العزيز (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) فمع ما للمال من مكانة في نفس الانسان، الا ان الله تعالى من خلال عبادة الزكاة ينمي في الانسان ملكة عدم الانجرار وراء نزعة حب التملك وتقديم المال على المقتضيات الالهية، ففي الزكاة تركية للنفس من درن التعلق بالدنيا وزينتها وبناء الانسان على تقديم الله على كل شيء آخر، وفي الجانب الآخر للزكاة هناك اثر اجتماعي مهم حيث ينمو في المجتمع روح التكافل والتكاتف وسد حاجة المحتاج والعيش كعائلة واحدة يشعر كل من ابنائها بالام الآخرين ويعمل على تحقيق آمالهم، فالزكاة تطهير للنفس من التعلق بالمادة وتهذيب العلاقة بين النفس والملكية المادية وكذلك هي سبيل للنهوض بالمجتمع وسد الحاجة وحفظ الكرام اذ ان الباذل للزكاة لا يرى نفسه انه قد بذل ماله لمساعدة الغير لان هذا القدر المحدد من المال قد اخرجته الله تعالى من ملكة ونسبه الى ذاته المقدسة وحدد الفئات الاجتماعية التي تستحق ذلك القدر من المال الذي سلب ملكيته ممن رزقه اياه ليكون وسيلة في ايصال مال الله الى الموارد المختصة التي تسهم في عملية البناء الاجتماعي على مختلف الاصعدة.

العفة: العفة من الامور التي اكدت عليها جميع الشرائع السماوية بل واخلاقيات المجتمع الانساني ذي الفطرة السليمة، وتأکید القرآن الكريم على العفة يشترك فيه جانباً بناء الفرد والمجتمع فإن الفرد الذي تكون غرائزه الجنسية منضبطة يكون اكثر استعداداً للقرب من الله تعالى لانه سيكون بعيداً عن تحكم الغرائز الحيوانية فيه، وبالتالي ستكون ارادته مبنية على الاسس الموضوعية بعيداً عن الهوس الغرائزي، وفي الوقت عينه تشكل مسألة العفة قيمة اخلاقية اجتماعية تكون ركيزة اساسية في حفظ الامن الاجتماعي وحفظ الحرمات ونواميس الناس ورعاية حرمة اعراضهم، وتشكل العفة لبنة اساسية في نشر الفضائل الاخلاقية وابعاد مجتمع مسؤول

ومنضبط وحريص على رعاية القيم والاخلاق الفاضلة بما يحقق مرتبة من مراتب الكمال الاجتماعي المؤسس على اساس رسوخ القيم العليا في افراد ذلك المجتمع.

اداء الامانة والوفاء بالعهد: اداء الامانة والوفاء بالعهد من القيم الاجتماعية المهمة التي جعلها الله تعالى صفة للمؤمن وشرط من شروط نيله مرتبة الفلاح، فالمجتمع الذي تسود فيه قيم الامانة والوفاء بالعهد يكون مجتمعاً ملتزماً منضبطاً والمجتمع الملتزم مجتمع ايجابي وبناء وقادر على النهوض والتطور والتقدم والبناء على العكس من مجتمع خيانة الامانة ونقض العهود الذي يكون بطبيعته مجتمع سلبي قائم على استغلال الغير وتضييع الحقوق، فمجتمع الامانة وحفظ العهود مجتمع تنمو فيه الفضائل وتحسر فيه الرذائل لانه مجتمع متمكن من السيطرة على غرائزه غير المنضبطة ومتبع للقوانين الشرعية والقيم الاخلاقية التي من لها الدور الكبير في تحقيق النهوض بالمجتمع واستثارة همم ابنائه للمضي قدماً في تحقيق السعادة الاخروية والدنيوية.

ومن هذا العرض المختصر لبعض الايات التي تناولت بناء الفرد والمجتمع يتضح بما لا شك ولا ريب فيه موقع بناء الفرد والمجتمع في التشريع الالهي وهو السمة التي اراد الله تعالى للمجتمع الانساني ان يتصف بها انطلاقاً من بناء الفرد ومن بعده بناء المجتمع وصولاً الى تحقيق اتسام الافراد والمجتمعات بالصفات الصالحة والخصال الحميدة الذي يشكل لبنة مهمة في المجتمع الامثل المحقق لمجتمع العدل الالهي على الارض وهي المهمة التي نهض بها الانبياء ومن بعدهم الاوصياء (صلوات الله عليهم اجمعين).

البعد الثالث

موقعية السلطة وديمومة المشروع الحضاري الاسلامي

عند مطالعة آيات الذكر الحكيم والوقوف عند السيرة النبوية المطهرة ونركز النظر في الآيات والروايات والسيرة العملية الخاصة بما يتعلق بمورد بحثنا من مسألة بناء الانسان والمجتمع نجد ان هناك امر ثالث بالاضافة الى الامرين المتقدمين وهو السلطة وبناء الدولة.

الآيات الشريفة التي تناولت الدولة تحدثت عن التعامل مع ابناء الديانات السماوية الاخرى في ظل الدولة النبوية وهو ما يطلق عليه بالمصطلح الحديث اليوم حقوق الاقليات، وتناولت مسألة التشاور في الامور واوكلت القرار الى النبي (صلى الله عليه واله) في الامر الذي يعزم عليه بعد المشاورة، وهو ما يطلق عليه اليوم بصلاحيات رئيس الدولة، والتشاور مرحلة متقدمة من قيام الامة بتحمل مسؤولياتها الى جانب القيادة، وكذلك تناولت امر الجانب الاعلامي وحذرت من الاعلام السلبي كما ركزت نشر القيم والمفاهيم الصحيحة التي جاء بها الاسلام واكدت النصوص على مسؤولية الكلمة، كما قننت النصوص مسألة العقوبات كالتصاص والديات وجدل شارب الخمر وجدل الزاني غير المحصن وحرمة الربا وحلية البيع والالتزام بمضامين العقود والميراث وامور الحرب والسلم واجراءات الصلح والمعاهدات مع الكيانات المعادية وغيرها من الموارد المتعلقة بادارة شؤون الدولة، كما اشارت الى الاهتمام بالجانب الامني وكيفية التعاطي مع الاعلام المضاد وضرورة الحفاظ على مستوى عال من الاستعداد العسكري لمنع التعدي على حرمان المسلمين والحد من التأثيرات الفكرية السلبية التي قد تؤدي الى انحراف فكري في الوسط الاجتماعي الاسلامي، كما دعت النصوص ابناء الامة ذوي الاستعداد العلمي من الهجرة الى النبي (صلى الله عليه واله) لتقلي العلم منه لنشره في اوساط الاجتماعية التي ينتمون اليها، وهي ما يمثل في عرف اليوم دور وزارتي التربية والتعليم العالي حيث ان من سيحضر الى المدينة للتعلم عند النبي (صلى الله عليه واله) سوف يتعلم منه التشريع وهو ما يقابل اليوم التخصص في مجال القانون وفي مجال الدستور الدولي حيث سيتلقى العلوم في مجال القضاء والحكم بين الناس وطريقة التعامل مع الظروف المحيطة بالدولة الاسلامية اي ما ينظم علاقات الدولة النبوية بالدول المحيطة بها، كذلك يتلقى احكام العبادات، ويتلقى المعلومات التي تتعلق بالعقيدة

وهو ما يقع البحث الفلسفي والكلامي فيه العصور المتأخرة، مضافاً الى ما في القرآن من كنوز علمية وادبية وبلاغية وهو ما تمثله اليوم الدراسات القرآنية.

ومن هنا يتضح لنا ان مسألة بناء الدولة مسألة مهمة جداً في واقع الفكر الحضاري الاسلامي، الا انها تقع في مرتبة ما بعد بناء الانسان والمجتمع، ويظهر ذلك جلياً وواضحاً في امرين:

الاول: ان مسألة بناء الفرد والمجتمع غير متوقفة على توفر الظروف الموضوعية كوجود شخصيات مستعدة لاتباع الانبياء بحيث يضمن بهم نجاح مشروع الدعوة الى التوحيد بجميع مستوياته الفكرية والعملية، بل ان النبي (صلى الله عليه واله) ومن سبقه من الانبياء هم من اوجد ارضية الدعوة لان متطلبات الدعوة الى الله تتقوم بالقدرة الذهنية لابناء المجتمع بتعقل ما يدعو اليه الانبياء (عليهم السلام) ولذا نهض الانبياء (عليهم السلام) بمهامهم الرسالية ولم ينتظروا اتباع الناس لهم والتحاقهم بهم وهو واضح بين في سيرة نوح وصالح وهود ولوط ويونس (عليهم السلام) الذين اهلك الله الاقوام التي بعثوا اليها - الا قوم يونس - وهو دليل عدم توقف السعي لبناء الفرد والمجتمع على توفر ظروف موضوعية تحقق تلك الغاية.

الثاني: ان مسألة بناء الدولة بما تمثله في مفهومها المتعارف من وجود دستور وسلطة تشريعية واخرى تنفيذية وثالثة قضائية، يعتمد على تحقق الظروف الموضوعية التي بدونها لا يمكن تشييد الدولة وبنائها، لان الدولة كي توجد لابد لها من ارض وشعب ودستور وسلطة، ولها قوانين تلتزم بها داخلياً حسب النص الدستوري وخارجياً حسب المعاهدات والاتفاقيات التي لا تتنافى مع دستور الدولة، ولذا فان بناء الدولة يقع متأخراً عن بناء الفرد والمجتمع وتشييد السلطة وتحديد مهامها يقع في مرتبة متأخرة عن وجود الدولة وان كان قد يزامنهما تحققاً على الارض، وهذا الامر واضح جدا في حياة النبي (صلى الله عليه واله) حيث شرع في بناء الفرد المسلم والمجتمع المسلم من خلال التعاليم الالهية التي لم تجد لها صدى واسعاً في مكة بينما انتشرت بقوة في يثرب، فكانت يثرب ساحة النشاط الاكبر في بناء الفرد والمجتمع ولما تحقق المجتمع المسلم في يثرب انتقل اليها النبي (صلى الله عليه واله) فشرع في بناء الدولة وتحديد معالم السلطة، وحيث ان النبي (صلى الله عليه واله) معصوم ويتلقى الوحي عن الله تعالى فان السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية كانت في يده، حتى توسعت الدولة الاسلامية، بعد فتح مكة فارسل (صلى الله عليه واله) فاصبحت الضرورة تقتضي بارسال من يقوم بهذه الامور في مختلف

المناطق والتي ترجع في النهاية الى الرسول (صلى الله عليه واله) باعتباره مصدر التشريع لانه المبلغ عن الله تعالى والرئيس العام الذي له حق ادارة السلطة لما له من مقام خاص باعتبار عصمته (صلى الله عليه واله).

وعلى الرغم من توسع الدولة النبوية توسعاً كبيراً خلال السنتين الاخيرتين مع توفر الطاقات البشرية والعسكرية التي تمكنه من التحرك نحو اراضي الامبراطوريتين الفارسية والرومانية الا انه (صلى الله عليه واله) لم يقم بذلك الا في مرتين كانت الغاية منهما ردع الاعتداء الروماني حيث كانت المرة الاولى عندما بعث قوة عسكرية من ثلاثة الالاف مقاتل لغزو الروم رداً على اعدام مبعوث رسول الله (صلى الله عليه واله) اليهم وكان البعث بقيادة جعفر بن ابي طالب (رضوان الله عليهما) والمرة الثانية عندما عبأ الرسول (صلى الله عليه واله) قواته واتجه نحو الروم ايضاً عندما بلغه ان الروم ينوون غزو بلاد المسلمين ولم يتحقق لقاء وقتال بين المسلمين والقوات الرومانية.

وعند النظر في سيرة النبي (صلى الله عليه واله) في مرحلة ما بعد فتح مكة نجد انه (صلى الله عليه واله) كان يولي اهمية قصوى لامرين، الاول بناء الفرد والمجتمع بناءً صحيحاً عقائدياً وفكرياً وثقافياً كي يكون ذلك المجتمع حاملاً لمفاهيم الرسالة الاسلامية الى العالم الارحب، والثاني ادامة المشروع الالهي بعده (صلى الله عليه واله) وقد تجلى ذلك في النصوص القرآنية والسيرة المطهرة حيث اولت النصوص القرآنية اهمية كبرى لاهل البيت (عليهم السلام) فالمتتبع الموضوعي لآيات الذكر الحكيم يجد ان هناك نصوصاً الغاية منها بيان مقام اهل البيت (عليهم السلام) وموضعهم في المشروع الحضاري الاسلامي، فالقرآن الكريم ليس كتاباً الغاية منه تمجيد اسرة النبي (صلى الله عليه واله) واقاربه بل نجده في بعض الموارد كان يعرض ببعض اقارب النبي (صلى الله عليه واله) كما في قوله تعالى (تبت يدي ابي لهب وتب) او في قوله تعالى (وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين) او في مسألة اسرار النبي (صلى الله عليه واله) لبعض ازواجه امراً فاظهرته وغير ذلك مما يوضح ان ليس كل من يحيط بالنبي له مقام المشروع الالهي للامة الاسلامية.

وعلى العكس من ذلك في تعاطي القرآن الكريم مع اصحاب الكساء (عليهم السلام) حيث يؤكد القرآن الكريم عليهم في مناسبات متعددة ومواقع شتى ليبين للامة ان من يقع على عاتقه ادامة

المشروع الالهي واستمراره هم هؤلاء نفر وان على الامة اتباعهم والاخذ منهم للوصول بذلك المشروع الى غاياته.

ومن امثلة ذلك قوله تعالى عند تصدق امير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام) بخاتمه وهو راع (انما وليكم الله ورسوله والذين امنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راعون) وقوله تعالى في قضية اصحاب الكساء (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً) وقوله تبارك اسمه في قضية المباهلة (قل تعالوا ندعو ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) مع تاكيد القرآن الكريم على ان الدور القيادي في المشروع الالهي لا يمكن ان يكون لا لاشخاص خاصين (واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال اني جاعلك للناس اماماً قال ومن نريتي قال لا ينال عهدي الظالمين).

كما ان ذلك هو الامر الواضح البين الذي لا شك فيه ولا غش عليه في سيرة النبي (صلى الله عليه واله) الذي اكد مراراً وتكراراً على خصوصية امير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام) في واقع المشروع الالهي ولم يخل موقع وموضع وزمن لم يشر (صلى الله عليه واله) الى ان من له اقامة المشروع الالهي بعده هو خصوص علي بن ابي طالب (عليه السلام) واهل بيته (صلوات الله عليهم) وقد تجلى ذلك في النصوص المتواترة التي اشادت بفضل امير المؤمنين (عليه السلام) منها حديث (انت مني بمنزلة هرون من موسى الا انه لا نبي بعدي) ومنها (ياعمار لو سلك الناس واديا وسلك علي وادي فاسلك الوادي الذي سلكه علي) ومنها قوله يوم غدير خم (من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعادي من عاداه) ومنها قوله (انا وعلي من شجرة واحدة وسائر الناس من شجر شتى) ومنها غلق الابواب الا باب علي (عليه السلام) ومنها قوله (صلى الله عليه واله) (اني مخلف فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي ابدا كتاب الله وعترتي اهل بيتي وانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض)

فيتجلى واضحاً ان المشروع الالهي يتقوم بتصدي من اصطفاهم الله تعالى لتحقيق ارادة الله في الارض، وهو ما بينه قوله تعالى في سورة ال عمران (ان الله اصطفى ادم ونوحا وال ابراهيم وال عمران على العالمين) وقوله تعالى (كان الناس امة واحدة فبعث الله الانبياء مبشرين ومنذرين) وقوله تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا).

كما يظهر واضحاً ان النهج الالهي مع المجتمع الانساني ومن ضمنه المجتمع المسلم ان سنة ابتلاء الامم جارية وان النوازع الذاتية ستأخذ دورها في المجتمع المسلم كما كان لها دورها في المجتمعات التي سبقت المجتمع المسلم قال تبارك وتعالى (ولتركبن طبقاً عن طبق) واخبر بذلك النبي (صلى الله عليه واله) حيث قال (حتى اذا جحر ضب دخلتموه).

ومن هنا يتبين ان السنة الالهية في الخلق هي بيان معالم المشروع الالهي وتعيين من لهم الالهية في قيادة المجتمع البشري لتحقيق ذلك المشروع وفي المقابل ان السنن الاجتماعية تقضي بانحراف المجتمع عن المسار الالهي باتباع الشهوات والخضوع للنزوات واستهداف القيادات الالهية وتهميشهم او القضاء عليهم وهو عين ما حصل في المجتمع البشري الاول بين ابناء ادم (عليه السلام) ثم تلاه ما ارتكبه الامم تجاه انبياءها فكانت سيرة بني اسرائيل مع انبيائهم من اكثر السيرة دموية تجاه الانبياء في تاريخ المجتمع البشري ثم تلاهم على ذلك المجتمع المسلم الذي تأمر على قتل النبي (صلى الله عليه واله) بعد العودة من غزوة تبوك وحديث سم النبي بكتف الشاه ثم تهمة امير المؤمنين (عليه السلام) واقصائه واستباحة داره وبعد عودة الامة الى وعيها في 18 ذي الحجة سنة 34 للهجرة انتفضت روح قابيل في مخالفي علي (صلوات الله عليه) فقادوا ضده حرب الجمل وصفين والنهروان حتى اغتالت روح قابيل العدوانية امير المؤمنين (عليه السلام) في مسجد الكوفة وهي يصلي الفجر، ثم عدوا على الحسن (صلوات الله عليه) حتى دسوا لهم السم ارتكبوا اكبر جريمة ابادة جماعية في حق ال ابي طالب يوم عاشوراء حيث قتلوا الحسين (عليه السلام) واهل بيته واصحابه، واستمرت مسيرة بني قابيل في حق اهل البيت (عليهم السلام) تمرداً وتجبراً واتباعاً للهوى وللشهوات وحباً في الدنيا ومعصية لله تعالى وخروجاً على ارادته وهو الذي جعل الدنيا دار اختبار لخالقة (لنبلوكم ايكم احسن عملاً) وقد بين تبارك وتعالى ان المشروع الالهي ماض ويتحقق على رغم من كل يحاول طمسه وانهاء معالمه حيث قال جل شأنه (والله غالب على امره) وفي عين الوقت بين تبارك اسمه ان تحقيق المجتمع المثالي الذي يريد تبارك تحقيقه سيكون بعد ان تصل قناعة بني الانسان الى ان هذا ما يجب ان يكون وان هذا المجتمع مبني على ايمان الناس به بعد ان يصلوا الى درجة الكمال التي تؤهلهم لذلك وان قيام ذلك المجتمع لا يكون مع كراهة الناس له (انلزمكموها وانتم لها كارهون) فالايمان هو قوام ذلك المجتمع وركنه الاساس الصفوة الصالحة الذين اصطفاهم الله تعالى، وحيث ان

المجتمع البشري قد بلغ بلحاظ بشريته اوج الاستعداد لظهور هذا المجتمع ختم الله تعالى النبوات بمحمد (صلى الله عليه واله) والرسالات بالاسلام وكما نصب الانبياء (عليهم السلام) هداة لدينة ومشروع بناء الانسان والمجتمع في الامم السابقة نصب اهل البيت (عليهم السلام) لادامة المشروع الحضاري الاسلامي الذي اظهره الله علي يد نبيه محمد (صلى الله عليه واله) فكانت بيعة الغدير الركن الاساس المبين لمسار طريق الهدى بعد النبي (صلى الله عليه واله) في قبال المشاريع الاخرى التي استهدفت تطويق المشروع الحضاري الالهي وحرف مساره اتباعاً للهوى ورغبة في السلطة وبهارج الدنيا.

المبحث الثالث

واقع المشروع الاسلامي

بعد 1456 من الانطلاقة

توفي النبي (صلى الله عليه واله) في بداية السنة الحادية عشرة للهجرة في الثامن والعشرين من شهر صفر، بعد ان اقام دولة امتدت من حدودها شمالاً الى اطراف العراق وبلاد الشام وحدها الجنوبي كان بحر العرب وحدها من الشرق الخليج ومن الغرب البحر الاحمر، قدمنا ان المشروع الحضاري الاسلامي الذي تم تشييده على يد النبي (صلى الله عليه واله) كان يهدف الى بناء الانسان وبناء المجتمع وان السلطة تحظى باهمية خاصة بلحاظ تحقيق الامرين السابقين اما السلطة بما هي في ذاتها فليست هدفاً في المشروع الحضاري الاسلامي، ولهذا نجد ان النبي (صلى الله عليه واله) لم يسع لبناء قوة عسكرية من شأنها الدفاع عن مسير الخلافة من بعده مع ان المشروع الالهي يقتضي ان تكون السلطة من بعده لأمر المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام) كي تستمر ادارة المشروع بيد الصفوة من الخلق، الا ان ذلك لم يكن وارداً في منهجه (صلى الله عليه واله) ليس لأنه لم يطلع على محاولة قريش للاستيلاء على السلطة، بل لان المشروع الالهي قائم على ان يكون المسار محاط بايمان الجماهير بالمشروع ودفاعها عنه، وان الائمة التي لم يتغلغل الايمان في اعماقها لا يمكن ان تكون حاملاً حقيقياً للمشروع الالهي، وهذا ما جرى بعد النبي (صلى الله عليه واله) اذ ان الله تعالى يريد للمجتمع ان ينضج ويصل الى المستوى المطلوب لما اراده من ان تكون الدنيا دار ابتلاء واختبار.

وعند التتبع للمسار التاريخي للواقع السياسي والاجتماعي في السنوات الاخيرة لحياة النبي (صلى الله عليه واله) ظهر اتجاهاً الاول هو الاتجاه المتبع لخطى النبي (صلى الله عليه واله) في كل شيء والثاني الاتجاه الداعي الى تحويل القيادة السياسية في البلاد الى القبائل القرشية وقد تمكن الاتجاه الثاني من استقطاب جميع القبائل القرشية وعمل على رسم برنامج ادارة الدولة بعد النبي (صلى الله عليه واله) وتقسيم ادوار الخلافة والسلطة والمهام الرئيسية فيها بعد وفاة النبي (صلى الله عليه واله) كما سعى لتحقيق اهدافه باستقطاب بعض القبائل البدوية المحيطة بالمدينة المنورة - قبيلة اسلم - والتي كان لها دور اساس في الانقلاب على السلطة الشرعية التي دعى اليها

النبي (صلى الله عليه واله) في مجمل حياته وكرس ذلك في بيعة الغدير يوم 18 ذي الحجة من عام 10 للهجرة النبوية، كما تمكن المشروع القرشي من التأثير على الانصار لتحبيدهم في الصراع بين قريش وامير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام) وتمكنوا من ذلك بدهاء كبير في برنامج ظهرت فصوله عند وفاة النبي (صلى الله عليه واله) وفي سقيفة بني ساعدة حيث قام القرشيون بتطويق بيت علي (عليه السلام) بعد وفاة النبي (صلى الله عليه واله) مباشرة فيم توجهت الزعامات القبلية الى سقيفة بين ساعدة للتفتيت تنازع الانصار في مسألة الخلافة بعد ان اتضح لهم ان قريش تعمل جادة للسيطرة على مقاليد الحكم والتي انتهت ببيعة الانصار لابي بكر وقارنها اقتحام قبيلة اسلم لازقة المدينة وفرض احكام عرفية وقيادة عمر لمفارز كان دورها اقتحام بيوت من تخلفوا عن بيعة ابي بكر واکراههم على البيعة وبعد ان تم لهم ذلك هاجموا دار علي (عليه السلام) لاجراجه مكرهاً لبيعة ابي بكر وما رافق ذلك الهجوم من احداث مأساوية تطرقت لها البحوث والكتب التي تناولت حادثة الهجوم على دار فاطمة (صلوات الله عليها).

لقد كان المشروع القرشي مشروع تشييد سلطة وكانت خصائص هذا المشروع تتمثل في:

1. اقضاء بني هاشم عن السلطة.
2. تدوير السلطة في قبائل قريش.
3. محاصرة كل ما من شأنه ان يوحى بضرورة الرجوع الى اهل البيت (عليه السلام) واخذ الدين عنهم.
4. نشر ثقافة بديلة عن ثقافة المشروع الالهي بالقدر الذي يضمن بث عقيدة تتلائم مع المشروع القرشي في ادارة السلطة.

وقد اتضحت معالم ذلك المشروع بتولي ابي بكر الخلافة بعد وفاة النبي (صلى الله عليه واله) ثم تولي عمر الخلافة من بعده وبعد عمر اسندت الخلافة الى عثمان، ويمكن ان يقال ان المجتمع المسلم في المدينة المنورة كان قد صحى من سكرة التأثير القرشي فاصبح الانصار اقل ميلاً الى المشروع القرشي واكثر رغبة في العودة الى المشروع الاسلامي الذي بني على اساس قيادة اهل البيت (عليه السلام) دون غيرهم للمشروع الالهي، كما ان جملة من القبائل العربية استنققت من غفوتها الا انهم كانوا ينظرون ما يفعل علي (صلوات الله عليه) الذي كان يرى ان من الخطر

الكبير على المسلمين القيام بثورة ضد السلطة التي لا يؤمن بمشروعيتها، وقد صرح بذلك في ايام خلافته في الكوفة بما عرف بالخطبة الشقشقية.

وفي المقابل ايضاً سعت السلطة القرشية الى الهاء المجتمع المسلم بالغزوات والفتوحات فالغزو كانت اثار مهمة في العوائد المالية الكبيرة نتيجة للسيطرة على بقاع واسعة من الارض والسيطرة على الثروات العظيمة لتلك الشعوب مع مصادرة اموال البلدان المفتوحة قتالاً حتى ان بعض الصحابة لما توفي ترك من الذهب والفضة ما يكسر بالفؤوس واحدهم كان في مريبط خيوله الف فرس من كرائم الخيل وعند التدقيق في التطور المجتمعي في الواقع الاسلامي في الفترة بين 11 هجرية وحتى 34 هجرية اي خلال 33 سنة فقط بين رحيل النبي (صلى الله عليه واله) وحتى تولي امير المؤمنين (عليه السلام) الخلافة ان حياة التواضع والاسوة الحسنة تحولت على حياة حيازة الثروات بل انه في بعض الاحيان شكلت ثروات الولاة تهديداً لامن الدولة المركزي فأمر عمر بن الخطاب بمناصفة الولاة في اموالهم فصادر نصفها منهم واستثنى من ذلك معاوية بن ابي سفيان، واما في عهد عثمان بن عفان فإن الخروج عن سيرة النبي (صلى الله عليه واله) قد بلغت مستوى واضحاً حيث اتخذ الحمى وبنى القصور واختص بني امية بالمناصب وامكانيات الدولة الامر الذي ترك اثراً مباشراً على حياة الناس العامة مع خروجه عن الاتفاق القرشي في تدور السلطة وتوزيع مناصب الدولة والولايات بين ابناء القبائل القرشية وهو الامر المتفق عليه بينهم قبل وفاة النبي (صلى الله عليه واله) والذي التزم به ابو بكر وعمر، مما دفع المجتمع الاسلامي عامة والقبائل القرشية خاصة للثورة ضد عثمان، فتوجه البصريون والكوفيون والمصريون الى المدينة مطالبين عثمان بالضغط على الولاة للعدول عن سياستهم في التضييق على الشعوب وتعديل السياسية المالية للبلاد فيم اعلنت عائشة وطلحة والزبير مناوئتهم لسلطة عثمان مطالبين ابناء الولايات الثلاث بالقضاء على عثمان واختار عبد الله بن عمر وسعد بن ابي وقاص السكوت لانهما في وضع لا يسمح لهما بالدخول في صراع يكون الفوز فيه لاتجاه عائشة السياسي مع عدم وجود ضمانات لوصولهما الى سدة الحكم، وفي خضم تلك المعمة كان امير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام) يسعى للوصول الى حلول تتناسب من روح الاسلام وبعيداً عن مخاطر سفك دماء المسلمين وظهور مسلك في الواقع الاسلامي ينتهي بالصراع على السلطة بما لا تؤمن عواقبه، ولذا سعى الى الوصول الى تفاهم بين بلاط عثمان

والمجتمع المسلم ولكن بلاط عثمان لم يلتزم بالاتفاق الحاصل بين الطرفين، وانتهى الامر بحصار المعترضين لقصر عثمان واستتجاد الاخير بمعاوية، الذي كان يرغب بنهاية دموية لعثمان لان بقاء عثمان في السلطة يعني وصول منافسه مروان بن الحكم الى سدة الحكم واقضاء معاوية عن الخلافة فتحرك معاوية بطريقة اودت بحياة عثمان كضحية للتنافس داخل البيت الاموي.

بعد ان قتل عثمان بايعت الامة علياً (صلوات الله عليه) بالخلافة، الامر الذي دعى بني امية وقرش للاتحاد مرة اخرى للانقضاض على السلطة ومنع وصول امير المؤمنين (عليه السلام) اليها والتي تولدت عنها حروب الجمل وصفين ومن اثارها معركة النهروان وانتهت باغتيال علي (صلوات الله عليه).

ولو اردنا التدقيق في المشروع القرشي قبيل وفاة النبي (صلى الله عليه واله) لامكن القول انه مشروع اموي بامتياز وان القرشيين والانصار كانوا مجرد تابعين للمشروع الاموي، فالامويين كانوا يعلمون انهم لا يمكن لهم ان يتولوا الخلافة بعد وفاة النبي (صلى الله عليه واله) مباشرة لان الانصار سوف لا يرضون بذلك بسبب دور الانصار في تصفية القيادات القرشية في معركتي بدر واحد وما يترتب على ذلك من تأثيرات قلبية وعشائرية، فكان الاسلم للمشروع الاموي ان يتولى الحكم اضعف القبائل القرشية التي لا عهد لها بالادارات الكبرى فتولى ابو بكر الحكم ومن بعده عمر ثم عاد الامر الى بني امية عندما تولى عثمان الحكم وفي فترة حكم ابي بكر وعمر وهبت الشام كمقاطعة خاصة لآل ابي سفيان وعندما وصل عثمان الى سدة الحكم كانت الشخصيات القرشية المؤثرة في الساحة السياسية قد زالت من عالم السياسية حيث مات خالد بن الوليد وعكرمة بن ابي جهل وهما زعيما بني مخزوم ومات ابو عبيدة بن الجراح ومات عبد الرحمن بن عوف الزهري، كما ان بني امية قد خططوا لازالة من يتصدى الى الخلافة في وقت مبكر فتمكنوا من اغتيال ابي بكر بعد سنتين من توليه الخلافة وعلى الرغم من الحذر الشديد الذي كان يتعامل به عمر الا انهم تمكنوا من اغتياله في المسجد اثناء الصلاة على يد فيروز ابو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، وبعد مضي ستة سنوات من تولي عثمان الحكم حصر ادارة البلاد ببني امية.

عندما ننظر في السير التاريخي لمسألة الخلافة بعد النبي (صلى الله عليه واله) نجد ان المشروع القرشي في تداول السلطة انتهى سنة 28 هجرية بانقلاب عثمان ضد الاتفاق القرشي واختصاص الحكم ببني امية، وقد تم وأد المشروع القرشي تماماً في معركة الجمل حيث لم يعد لقريش اي دور سياسي حقيقي، وما قام به معاوية كان عبارة عن تكريس الحكم في العائلة الاموية، ولم تكن دولة ابن الزبير التي ظهرت في سنة 63 هجرية بعد موت يزيد بن معاوية، استمراراً للمشروع القرشي بل كانت تحقيقاً لرغبة ابن الزبير في الوصول الى سدة الحكم، ولم يكن الحال في بني العباس افضل منه من الحال مع الامويين اذ كان عبارة عن تأسيس لسلطة العائلة.

وهكذا انتهى مشروع تشييد السلطة الذي اسسه القرشيون بدفع من الامويين بعد ثلاثة عقود من ظهوره، الا ان اثاره السلبية استمرت لتولد الحكم الملكي الاموي ثم الحكم الملكي العباسي وحتى انتهاء الامر بالمظهر الشكلي للدولة العباسية بسبب ظهير الدويلات المختلفة فيها، بل وفقدانها حتى للوجود الشكلي في بعض اقطار العالم كما هو الحال في قيام الدولة الفاطمية التي نازعت الدولة العباسية نفوذها، وتلى ذلك انهاء السلطة العباسية في شرق العالم الاسلامي على يد المغول عند سقوط بغداد سنة 636 هجرية.

ومن الطبيعي في دولة في تلك القرون الخالية تعتمد الدين وسيلة لادارة الحكم - كما هو شأن جميع الدول والامبراطوريات الاخرى فالدول الاوربية كانت دولا دينية ايضاً ويشهد لذلك الحروب الصليبية التي كانت دور رحاها بين المسلمين والمسيحيين، وكذلك الحروب المذهبية بين الدول الاوربية نفسها - ان تعنى بالثقافة الدينية للمجتمع وان توجهه بالنحو الذي يضمن لها الديمومة والبقاء .

ومما لاشك فيه ان وصول الحقائق الدينية في مجال الامامة وادارة الدولة والمشروع الحضاري الاسلامي الذي جاء به النبي محمد (صلى الله عليه واله) من شأنه ان يقوض اركان تلك الدولة فإن من لم يكن جزءاً من المشروع القرشي - الاموي اذا عرف الحقيقة سينقل ولاءه لاهل البيت (عليهم السلام) ولهذا كان العمل حينئذ على مشروع تجهيل الامة بواقع المشروع الحضاري الاسلامي، مع الابقاء على ما لا يتعارض مع بقاء سلطتهم من مظاهر الدين مع السعي للتغيير ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ولو من خلال الجزئيات، فسار المشروع الاول في ظل سلطة قريش

حتى بلغ اوجه في ظل بني امية الذين قننوا سب امير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام) على المنابر بل كانوا لا يدفعون العطاء الا لمن يسب علياً (صلوات الله عليه) وتبنوا نشر الاحاديث الكاذبة ودفع الاموال لمن يضع احاديثاً كاذبة في الطعن في علي (صلوات الله عليه) ومدح بني امية وتشبيد فضائل وهمية لهم واستمر الحال على ذلك طيلة العهد الاموي، ولما وصل العباسيون الى الحكم حاربوا احاديث فضائل بني امية ولم يغيروا شيئاً في احاديث الذم في علي (عليه السلام) وبنيه لانها بقاءهم في السلطة يقتضي ذلك الا ان ظهور قوى سياسية على الساحة الدولية في الواقع الاسلامي سمح لمعتدلي الرواة من اظهار الحقائق ونشر الروايات التي وردت في فضائل اهل البيت (صلوات الله عليهم) فظهور الدولة الفاطمية ودولة بين اسد في الحلة ودولة بني حمدان في الموصل وحلب ودولة بني بويه مضافاً الى خروج الاشاعرة من الكوفة واستقرارهم في قم واستقلالهم عن غيرهم من الفئات الاجتماعية ثم انتشار طلبتهم في الري كل هذا ادى الى تحجيم دور النشاط الاموي - القرشي - العباسي، وكشف الكثير من الحقائق، ولم تمض القرون ونحن اليوم في القرن الخامس عشر الهجري الا والغالبية العظمى من المسلمين بعض النظر عن مستوياتهم الفقهية والفكرية تستشعر الحب والولاء لاهل البيت (عليهم السلام).

كما ان التغيير في نمط التفكير اليوم بعد ان خرج المجتمع المسلم من دائرة تقديس المؤسسة الدينية التي تعتبر تسلسلاً طبيعياً لميراث السلطة التثقيفة للمؤسسة الرسمية القرشية الاموية العباسية العثمانية، من شأنه ان يقرب ذهنية المجتمع الاسلامي اكثر فاكثر من واقع المشروع الحضاري الاسلامي لان المشروع الحضاري الاسلامي اكثر منطقية من مشروع تشبيد السلطة واكثر وضوحاً واقرب الى دلالة ظواهر الايات والروايات التي اسهم مشروع تشبيد السلطة في حرفها عن مسارها الصحيح والا باي منطق عقلي وعقلاني يمكن ان يقبل ان يفسر قول النبي (صلى الله عليه واله) في يوم الغدير (من كنت مولاه فهذا علي مولاه) في انه (صلى الله عليه واله) كان يريد ان يخبر الامة بان علياً (صلوات الله عليه) هو نصيرهم والمحب لهم، ان ثقافة تشبيد السلطة على حساب بناء الفرد والمجتمع لا زالت هي الثقافة الحاكمة في اوساط العالم الاسلامي على الصعيد السياسي ولدى احصاء النفوذ في مختلف المؤسسات الفكرية والثقافية الا ان المفكرين الاحرار يجدون بما لا يشوبه الشك ان الحق مع المشروع الالهي وهو المشروع

الذي يحقق الغاية الالهية في حضارة اسلامية قائمة على اساس بناء الانسان وبناء المجتمع والرجوع الى الله في كل شيء واتباع سبيله وتجنب السبل التي تفرق بهم عن سبيله.

وهو المشروع الذي بينه رسول الله (صلى الله عليه واله) طيلة ايام حياته منذ اليوم الاول عندما انذر عشيرته الاقربين وحتى الاعلان العام في غدير خم في الثامن عشر من ذي الحجة سنة 10 هجرية، وهو مشروع قيادة الصفوة من الخلق للمجتمع الاسلامي.

الخاتمة

هذه الاسطر جرى تدوينها في شهر رجب من عام 1443 للهجرة النبوية الشريفة، والذي صادف شهر شباط من سنة 2022 للميلاد، اي بعد 1456 سنة من البعثة النبوية الشريفة، وفي ما تقدم من البحث سلطت الاضواء على السنة الالهية في المجتمع البشري منذ بدأ نزول ادم (عليه السلام) الى الارض اي اننا القينا النظر على المنهج الالهي المعبر عنه قرآنياً بالسنة الالهية (ولن تجد لسنة الله تبديلاً) (ولن تجد لسنة الله تحويلاً) (سنة الله في الذين..) سوف نجد عدة امور ثابتة لم تتغير على طول خط مسار البشرية:

1. ان الله تعالى بعث الانبياء لهداية الامة وقيادتها وبيان احكام شرعه المنظمة لحياة الانسان والمحددة لتحقيق مصب حق طاعته.
2. ان المجتمع الانساني كلما كان اطوع للمشروع الالهي كان اقرب لتحقيق العدل والانصاف واسرع قطعاً لثمار السعادة في الدارين، وكلما ابتعد عن المشروع وقع في التيه والظلال والظلم وفقدان البوصلة نحو تحقيق المجتمع الانساني السعيد.
3. ان التطبيق الواقعي للمشروع الالهي لا يتحقق الا على يد من اصطفاهم الله من خلقه واما غير المصطفين من الخلق فلا يمكن تطبيق المشروع بحذافيره نعم تكون هناك درجات من القرب والبعد بحسب امتثال تلك المجتمعات قيادة وشعوباً لما ورد في التعاليم الدينية على مختلف الاصعدة العقائدية والتشريعية والاخلاقية.
4. ان رفض المجتمع البشري للاتباع لتعاليم الشرائع الالهية يواجه بعقوبات رادعة تكون تارة بتدخل الهي مباشرة كما في العقوبات التي تعرضت لها اقوام نوح وهود وصالح ولوط (عليهم السلام) بعد اليأس من انقيادهم الى الطريق الصحيح، او ان ابتعادهم عن طريق الحق سيكون ضمن سير الحتميات الاجتماعية والتاريخية التي تنتهي بتفتت قوتهم وزوال سيطرتهم وبطلان سعيهم وانحدارهم من مستوى القمة الى الضحالة وهو امر واضح في بني اسرائيل وفي المسلمين بعد رحيل النبي (صلى الله عليه واله)، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله (انلزمكموها وانتم لها كارهون)
5. ان توجهات الانسان المادية ونزعاته السلطوية واتباعه للهوى وبعده عن الحق يشكل في كثير الاحيان ظاهر اجتماعية بحاجة الى تشذيب وتهذيب وقد جرت السنة الالهية في

جميع المجتمعات الى منح المجتمع فرصة للانعتاق من هوى النفس والعود الى الله تعالى وهذا ما نجده يتحقق بين فترة واخرى في كثير المجتمعات الا ان الظروف المحيطة بالواقع الاجتماعي مضافاً الى عودة همينة عبادة الذات والانحراف عن المسار الصحيح يعود بالمجتمع الى الانكفاء مع الاحتفاظ بنسبة من التقرب نحو الحقيقة، فالبعد عن الحق والاستجابة للنزوات حتمية بشرية تقتضيها طبيعة استحواذ الاهواء النفسية على اولئك الاشخاص الا ان المجتمع في نهاية المسار سيختار خطوة اقرب ويبتعد بخطوة عن مجتمع الانحراف المطبق.

6. ان المشروع الالهي في تحقق الفرد الاكمل والمجتمع الكامل والدولة الكاملة سوف يتحقق معهما بعد الزمن وقد بان ذلك من قوله تعالى (والله غالب على امره) وماورد متواتراً عن النبي (صلى الله عليه واله) (لو لم يبق من الدنيا الا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يظهر رجل من ولدي اسمه اسمي وكنيته كنيتي ويملؤها قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً)، وهذا يدل على ان تحقيق ذلك المجتمع ات لا محالة وان يكون على يد رجل من اهل بيت النبي (صلى الله عليه واله) الذين اصطفاهم الله ليكونوا مبلغين عن الله وحفظة لشرعه والمقيمين لسلطانه.

7. ان المشروع الحضاري الاسلامي القائم على بناء الفرد والمجتمع وتشبيد سلطة الحق التي تتبنى قيم العدل والانصاف والدعوة الحق الى الله تعالى كانت بيعة الغدير ركنها الركين الذي به تم تحديد مسار القيادة الحقة للوصول الى الله وان السبيل الى الله يمر عبر سلسلة اولها النبي (صلى الله عليه واله) ثم امير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام) ومن بعده الحسينين (عليهما السلام) ثم ابناء الحسين (صلوات الله عليه) ابتداءً بالامام السجاد (عليه السلام) وانتهاء بالحجة بن الحسن المهدي (عليه وعلى ابائه افضل الصلوات واتم التحيات) واما السبل والطرق الاخرى فانها بعيدة عن طريق الحق وسبيل الله الموصل اليه، وهي التي اشار اليها تبارك وتعالى في قوله (ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله).